الباب الثالث

المقارنات

الفصل الأول

العلاقات بين العرب والروم وأثرها فى الدراسات المقارنة

وبعد أن قدمنا أشهر نماذج الأدب الشعبى العربى والبيزنطى التى نتجت عن الصراع الطويل بين العرب والروم، نفرغ إلى عقد المقارنات بين الأدبين، تلك التى نراها تتمثل فى أكثر من وجه.

وإذا كانت المقارنات من شأنها أن توضح لنا العلاقة القوية بين الأدب الشعبى العربى والبيزنطى، فإننا نود أولا أن نلقى الضوء على العلاقة الواقعية بين شعبى العرب والروم بعيدا عن جو القتال الذى أفاض المؤرخون فى وصفه، واقتصروا عليه فى تصوير العلاقة بين شعبين متجاورين تطاحنا قرونا طويلة. ومن المحتم أن هناك علاقة من نوع آخر نشأت بينهما. وقد أشار إليها فازلييف المؤرخ المتخصص فى تاريخ الحروب العربية الرومية، إذ يقول: «فإذا قارنا مؤرخى العرب والروم ووصفهم المعارك على وتيرة جافة، وعدد القتلى وعدد الأسرى، وذكرهم ذكرا كثيرا سكانا هلكوا ومحصولات بادت ومعاملات سيئة للأسرى فإننا قد لا نرى فى هذا لأول نظرة إلا الجانب القاتم من كل ذلك والناحية السلبية من العلاقات الرومية والعربية. والواقع

إنه يوجد شيء غير ذلك، فإن اتصال هذه المعارك بما يستتبع من علاقات ممتدة غير مقصودة بين شعبين كبيرين لا يخلو من أثر على التطور الداخلى لدى كل من الامبراطوريتين. وإذا كانت التجارة قد تأتى فى المكان الأول من حيث هى عامل على التطور الثقافى للشعوب، فإن الحوادث السياسية أيضا قد خدمت الثقافة فى كثير من الأحيان. إذ يتطاحن شعبان غريبان بدافع من طبيعة الأشياء فيتبادل المنتصرون والمنهزمون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والأدب، ولذلك كان يجب أن ينتج من ذلك حياة داخلية نشيطة»[1].

هذه الإشارات الدقيقة التى تختص بالعلاقات الرومية والتى أوجزها فازيلييف فى مقدمة كتابه، نود أن نستوضحها فى حياة الشعبين العادية، قبل أن نستوضحها فى أدبهما.

سبق أن أشرنا إلى الحملة التى قام بها ليوالايسورى ضد عباد الصور فى الدولة البيزنطية، والتى قيل أنه كان متأثرا بها بالحملة التى قام بها يزيد بن عبد الملك على عباد الصور فى مصر عام ١٠٢ هـ. ٧٢٠م، حينما كتب إلى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها ومحيت من ديار مصر. وقد وصف مؤرخ بيزنطى ليو ـ بناء على هذه الحادثة ـ بأنه ذو شخصية عربية، كما ذكر أنه كان يجيد العربية ويعرف أمور الخلافة الإسلامية نتيجة إقامته فى موطنه مرعش إحدى مراكز الثغور[2].

(١) فازيلييف: العرب والروم. ص ١٨.
(٢) الامبراطورية البيزنطية: ترجمة الدكتور حسين مؤنس (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠) ص ٣٧٦.

ومثل هذا الحدث يشير إلى علاقة تجاوزت الموقف العدائى إلى التبادل الفكرى الذى انعكس بدوره على التطورات الداخلية.

وهناك حادثة أخرى ذكرها النويرى فى نهاية الأرب، لا نستطيع أن نقول أنها تصور العلاقة الودية بين الشعبين، وإنما تصور لنا مدى تداخل الشعبين أحدهما فى الآخر، وتقديرهما لبعض الأمور بعيدا عن جو الشحناء والبغضاء. ونود أن نسوق الحادثة كاملة كما رواها النويرى يقول: «أن رجلا من قريش أسر فحمل إلى صاحب القسطنطينية فكلمه ملك الروم، فجاوبه القرشى بجواب لم يوافقه، فقام إليه رجل من البطارقة صاحب القسطنطينية فوكزه، فقال القرشى: وامعاوياه! لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا. فوصل الخبر إلى معاوية فطوى عليه واحتال فى فداء الرجل. فلما وصل إليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذى وكزه فلما عرفه أرسل إلى رجل من قواد صور، الذين كانوا قواد البحر ممن عرف بالنجدة وغزو الروم، وقال له: انشىء مركبا يكون له مجاديف فى جوفه. واستعجل السفر إلى بلاد الروم، وأظهر أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا، وتوصل إلى صاحب القسطنطينية ومكنه من المال وأحمل إليه الهدايا وإلى جميع أصحابه، ولا تعرض لفلان (يعنى الذى لطم الرجل القرشى) وأعمل كأنك لا تعرف، فإذا كلمك وقال لك لأى معنى تهادى أصحابى وتتركنى، فاعتذر إليه وقل له: أنا أدخل إلى هذه المواضع مستترا ولا أعرف إلا من عرفت به، فلو عرفت إنك من وزراء الملك لهاديتك كما هاديت أصحابك، ولكنى إذا انصرفت إليكم مرة أخرى سأعرف حقك، ففعل القائد ذلك. ولما انصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه وأربى فى هديته

على أصحابه، ولم يزل حتى اطمأن إليه العلج. فلما كان فى إحدى سفراته قال له البطريق كنت أحب أن تجلب إلى من بلاد المسلمين وطاء ديباج يكون على ألوان الزهر، قال: نعم فلما انصرف أخبر معاوية بما طلبه البطريق، فأمر له ببساط على ما وصف، وقال: إذا دخلت وادى القسطنطينية فأخرجه وأبسطه على ظهر المركب وتربص فى وادى حتى يصل الخبر إلى ذلك العلج، وأبعث له فى السر وتحين خروجه إلى ضيعته التى له على ضفة وادى القسطنطينية، فإذا وصلت إلى حد ضيعته فابتدىء لها، ولعل يحمله الشره على الدخول إليك، فإذا حصل عندك فى المركب، كربه راجعا إلى الشام، ففعل ما أمره به معاوية. وصادف ذلك وصول ذلك القائد وجود البطريق فى ضيعته، فبسط ذلك على ظهر المركب ووصل إلى عرض ضيعة العلج، فلما عاين البساط حمله الشره والحرص إلى داخل المركب. فلما صار فى المركب أشار القائد إلى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريق ومن معه وسار حتى قدم معاوية. فأحضر معاوية البطريق وأوقفه بين يديه، وأحضر القرشى وقال: هذا صاحبك؟ قال: نعم، قال قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد، فقام القرشى فوكزه كما كان فعل به العلج. ثم قال معاوية للبطريق: ارجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك الإسلام يقتص من أصحاب بساطك، وقال للذى ساقه: انصرف به إلى أول أرض الروم وأخرجه واترك له البساط، وكل ما أسألك أن تحمله إليه من هدايا. فانصرف به إلى فم وادى القسطنطينية، فوجد ملك الروم قد صنع سلسلة على فم الوادى ووكل بها الرجال، فلا يدخل أحد إلى الوادى إلا بإذنه، فأخرج العلج من معه. فلما وصل إلى ملكه ووصف له ما صنع به

معاوية قال: هذا ملك كبير الحيلة. فعظم معاوية فى أعينهم وفى نفوسهم فوق ما كان».

وإلى هنا تنتهى الحادثة. ثم يعلق البويرى عليها قائلا: «وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوىء ما تقدمها»[1].

وربما عنى البويرى بذلك التعليق أن ظاهرة الحادثة غير باطنها، وبتعبير آخر أن نهايتها تثير فى القارىء إحساسا مخالفا لذلك الذى تثيره بدايتها. فعلى الرغم من العداء المستحكم بين الطرفين نلاحظ أن تقديرهما للقيم الإنسانية تخالف ما نعيشه الآن حينما تسيطر العداوة والبغضاء على شعبين متخاصمين. ولعل عبارة معاوية «أصنع به ما صنع بك ولا تزد» إنما تدل على ذلك دلالة واضحة، كما أن تقدير ملك الروم لشخصية معاوية تقديرا موضوعيا، إنما يعنى أن الحرب المحتدمة بين الطرفين لا تلغى تقدير الأفراد بعضهم لبعض بعيدا عن أى إحساس عدوانى.

ونستطرد فى تقديم الأمثلة التى توضح العلاقة بين الطرفين المعنيين فى عصور تلت عصر معاوية، حينما بلغت الحرب ذروتها قبل الحروب الصليبية. ونحن نعتمد فى ذلك كل الاعتماد على أخبار إسامة بن منقذ فى كتابه «الاعتبار» الذى يعده المؤرخون ترجمة ذاتية لحياة أسامة بن منقذ. وقد كان أسامة بطلا فارسا عاش الحروب العربية البيزنطية وخاض معاركها. وهو الذى يقول فى كتابه: «فكم لقيت الأهوال وتقحمت المخاوف

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٦ ص ١٨٦، ١٨٧ (ط. وزارة الثقافة والإرشاد القومى ـ ١٩٦٦).

والأخطار، ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح وبالسهام»[1].

يقول أسامة إن روجار صاحب «انطاكية كتب إلى عمى يقول: قد نفذت فارسا من فرسانى فى شغل مهم إلى القدس، اسأل أن تنفذ خيلك وتأخذه من أفامية، ويوصلونه إلى رفنية. فركب وأرسل إليه من أخبره فلما لقيه قال: «قد نفذنى صاحبى فى شغل وسر له لكنى رأيتك عاقلا فأنا أحادثك به» فقال له عمى «من أين عرفت أنى عاقل وما رأيتنى قبل الساعة؟» قال: «لأنى رأيت البلاد التى مشيت فيها خربة وبلدك عامر. فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك. «وحدثه بما جاء فيه.»[2].

ويحكى كذلك أسامة عن علاقته بالروم فيقول: «كل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم ـ قبحهم الله ـ أننى كنت إذا زرت البيت المقدس، دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية[3] ـ وهم أصدقائى ـ يخلون لى المسجد الصغير أصلى فيه. فدخلته يوما فكبرت ووقفت فى الصلاة. فهجم على واحد من الأفرنج، مسكنى ورد وجهى إلى الشرق

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار. ص (س) ـ نشر فيليب حتى. برنستون ١٩٣٠.
(٢) المرجع السابق ص ٨٧.
(٣) هم جماعة الفرسان المسمون Templers. وقد نشأت تلك الجماعة عام ١١١٩م وأيدها البابا عام ١١٢٨م، وكان هدفها حماية بيت المقدس. وقد سموا بذلك نسبة إلى معبد النبى داود فى أورشليم (مادة Templers فى Der Neue Brockhaus)

وقال: «كذا صل» فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عنى وعدت أنا إلى الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ورد وجهى إلى الشرق وقال «كذا صل». فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى وقالوا: هذا غريب وصل إلى بلاد الافرنج فى هذه الأيام، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق»[1].

ويستطرد أسامة فى حكاياته فيقول: «إن نجم الدين بن أيلغارى بن ارتق رحمه الله كسر الافرنج، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاثة عشرة وخمسمائة وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه. فسار إليه عمى عز الدين أبو العساكر سلطان رحمه الله وتخلف والدى رحمه الله فى حصن شيزر وقد وصاه أن يسيرنى إلى أفامية بمن معى بشيزر، ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية. وكان قد خف من العرب إلينا خلق كثير.. وسرت فى نفر قليل، ما يلحق عشرين فارسا، ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خيالة ومعى خلق عظيم من النهابة والبادية. فلما صرنا على الوادى أبو الميمون، والنهابة والعرب متفرقون فى الزرع، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير، وكأن قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون رجلا فكشفونا عن الوادى فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين فى المزارع ينتبهون فضجوا ضجة عظيمة. فهان على الموت لهلاك ذلك العالم معى. فرجعت إلى فارس فى أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف. فطعنته فى صدره، فطار عن سرجه ميتا. ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم،

(١) الاعتبار ص ١٨٤.

وتحتى فرسى مثل الطير الحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم. وفى أخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب وأنا خائف منه ألا يكون جاذبا لى ليعود على، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه. فعلمت أنه قد أعيا. فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع. وخرجت من السرج لخفة جسمى وقوة الطعنة وسرعة الفرس ثم تراجعت وجذبت رمحى وأنا أظن أنى قتلته. فجمعت أصحابى وهم سالمون. ووصل عمى رحمه الله من عند نجم الدين ايلغازى، فأتانى رسوله يستدعينى فى وقت ما جرت عادته فيه. فجئته فإذا عنده رجل من الافرنج فقال: هذا الفارس قد جاء من أفامية يريد يبصر الفارس الذى طعن فيليب الفارس. فإن الافرنج تعجبوا من تلك الطعنة وأنها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس»[1].

ومما يحكيه أسامة عن مقدار تقدير الافرنج للفارس والفروسية قوله: «والافرنج، خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولاعندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم نـاس إلا الفرسان ـ فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس (واسمه رينيه Renier) وبيننا وبينهم صلح وأنا إذ ذاك بدمشق فقلت للملك فلك بن فلك[2]: «هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولادة الغنم فولدت وماتت أولادها، وردها علينا بعد أن أتلفها» فقال الملك لستة نفر من

(١) الاعتبار: ص ٤٠، ٤١.

(٢) هو الملك فلك Fulk الذى توج ملكا على أورشليم عام ١١٣١م.

الفرسان: «قوموا اعملوا له حكما». فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا: «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم». فأمره الملك بالغرامة. فتوسل إلى وثقل على حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم، بعد أن تعقده الفرسان، ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الافرنج أن يغيره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم. وقد قال لى الملك «يافلان، وحق دينى لقد فرحت البارحة فرحا عظيما» قلت: «الله يفرح الملك. بماذا فرحت؟ قال: قالوا لى أنك فارس عظيم وما كنت أعتقد أنك فارس. قلت يا مولاى: أنا فارس من جنسى وقومى وإذا كان الفارس دقيقا طويلا كان أعجب لهم»[1].

وأخيرا يحكى أسامة عن تقدير الافرنج للفروسية وعلاقتهم الودية بالعرب فى بعض الأحيان فيقول: «وكان نزل علينا دنكرى[2] وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون[3] فقاتلنا ثم اصطلحنا. فنفذ يطلب حصانا لغلام عمى عز الدين رحمه الله. وكان فرسا جوادا. فنفذه له عمى تحت رجل أصحابنا كردى يقال له حسنون. وكان من الفرسان الشجعان، وهو فارس مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدى دنكرى فسابق الخيل المجراه كلها. وحضر بين يدى دنكرى فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه، وقد عرفوا أنه فارس شجاع. فخلع عليه دنكرى. فقال له

---

(١) الاعتبار ص ٦٤، ٦٥.

(٢) Tancred.

(٣) Bohemond I.

حسنون «يا مولاى أريدك تعطينى أمانك إنك إذا ظفرت بى فى القتال تصطنعنى وتطلقنى». فأعطاه أمانة[1].

وهذا ما يحكيه أسامة بن منقذ، وهو شاهد عيان للحرب الدائرة رحاها بين العرب والنصارى فى منطقة الحدود العربية الرومية. وفضلا عن ذلك، فقد عاشر أسامة الافرنج وحكى عن طبائعهم وعاداتهم وعلاقتهم به وبالعرب. ونحن نفترض أن هذه العلاقة لم تكن بين أسامة وأبطال الإفرنج منفردين وإنما كانت كذلك بين الشعب العربى المستقر فى منطقة الحدود وبين الشعب الرومى ومن يعده الافرنج.

ولا نود أن تخلص من ذلك إلى أن العلاقة كانت ودية بين الطرفين، كما يتضح من المراسلات الودية التى تمت بين الطرفين، وإنما نود أن نؤكد أن العلاقة بينهما كانت أبعد من كونها معارك حربية فحسب يصطرع فيها الطرفان، كل من أجل دينه ومن أجل أمته. ونحن نتوقع أن مثل هذه العلاقة السلمية والحربية حقا قد مهدت لتلاقى الأفكار ولانتشار الآداب الشعبية بين الطرفين، بخاصة إذا افترضنا أن كثيرا من فرسان العرب وفرسان النصارى ـ نتيجة معاشرتهم الطويلة، كانوا يعرفون إلى حد ما، إن لم يكن إلى حد كبير لغة بعضهما الآخر.

وإذا كانت كتب التاريخ قد أرخت للمعارك الحربية، كما صورت لنا بعض الأخبار شيئا عن العلاقات غير الحربية بين العرب والروم، فإننا ننتقل

---

(١) الاعتبار ص ٦٥، ٦٦.

الآن إلى مقارنة الآثار الأدبية لدى الشعبين حتى نتمثل العلاقة كاملة بينهما.

بعد أن رأى جريجوار وجوسون أن الملحمة البيزنطية تشيد بذكر عمرو بن عبيد الله أمير الثغور وهو الذى عرف لدى البيزنطيين باسم أمبرون، فجعلت منه جدا لديجنيس، وبعد أن رأى أن سيرة الأميرة ذات الهمة لا تغفل عن ذكر عمرو بن عبيد الله، بل انها كثيرا ما ذكرته بوصفه أميرا للثغور، فقد افترض جريجوار ـ بناء على ذلك ـ وجود ملحمة عربية عاشت فى منطقة الثغور مخلدة اسم البطل العربى عمرو بن عبيد الله. ولسبب ما ماتت هذه الملحمة تاركة أثرها فى سيرة الأميرة ذات الهمة وفى ملحمة ديجينيس[1].

وقد شارك العالم كنار كلا من العالمين جوسون وجريجوار هذا الرأى. كما أضاف أنه من المحتمل كل الاحتمال أن تكون سيرة الأميرة ذات الهمة التى تمجد أسرة بنى كلاب، ليست سوى صدى للملحمة الشعبية التى افترضوا وجودها ذات يوم، حيث أن هذه الملحمة الأخيرة مجدت بطبيعة الحال أسرة بنى سليم التى ينتسب إليها البطل عمرو بن عبيد الله. وربما ساعد انتشار أسرة بنى كلاب فى منطقة الثغور على نسيان الملحمة السليمية. كما أضاف كنار أن شخصية عمر بن النعمان فى حكاية عمر النعمان، وبما كانت أثرا من آثار هذه الملحمة العربية المفقودة.

كما افترض كنار أن ديجنيس يمثل شخصية أبى حفص بن عمرو بن

(١) Grégoire, R. Gossens: Byzantinisches Epos und arabischer Bittero-man. ZDMG (Band 13, 1934). 5222.

عبيد الله وكان بطلا محاربا مثل أبيه. حيث أن ديجنيس فى ملحمته ينتسب إلى عمرو بن عبيد الله[1].

أما فازيليف فيفسر شخصية ديجنيس من الوجهة التاريخية تفسيرا آخر. فيقول نقلا عن المؤرخ فايل: «وكان ابن نصر يسمى منصورا. ويظهر أن الملحمة الرومية قد حفظت ذكرى ثورة نصر هذه لأن منطقتها كانت منطقة البطل الرومى (اقليم سميساط). وكان نصر يرأس القيسية ونحن نعلم أن مخطوط الأسكوريال يذكر أن أم الأمير ذكرت له ما يساورها من الخوف من القيسية. وفى الملحمة أيضا ذكر منصور وتصويره على أنه صعلوك خطير. ولنذكر فوق ذلك صعلوكا آخر من أعداء ديجنيس هو عنقولاس، ويظهر أنه اسم لقبيلة عقولايا المذكورة عند ميشيل أكثر من مرة، ولعلها قبيلة بنى عقيل، قبيلة نصر»[2].

هذا من حيث محاولة ربط الشخصيات الملحمية بالشخوص التاريخية. وهى محاولة استعان بها الدارسون بالمؤرخين البيزنطيين بصفة خاصة، الذين لهم الفضل فى توضيح أصول الأسماء التى وردت فى الأدب الشعبى البيزنطى.

وربما رأينا كيف أن الربط بين الشخصيات التاريخية والشخصيات

---

(١) Canard (M.): Un Personage de Roman arabo- Byzantine (Société Historique Algerienne. 1932.)

Canard (M.): Delhemma, Sayyid el Battal et Omar al- Noman. (Extrait du Byzantion, Tome XII, 1937) p.12.

(٢) فازيلييف: العرب والروم، ص ٨٧ بالهامش.

الملحمية فى كل من الأدب الشعبى العربى والبيزنطى يتفاوت فى وضوحه ودرجة يقينه. فإما أن تكون العلاقة واضحة مما لا مجال فيها للشك كما هو الحال فى سيرة الأميرة ذات الهمة، أو نجدها يكتنفها بعض الإبهام، الأمر الذى يتطلب دعم الآراء بكثير من الفروض كما هو الحال فى حكاية عمر النعمان وملحمة ديجنيس. والمسألة تعتمد أولا وأخيرا على شكل العمل الأدبى. فإذا كان الشكل القصصى، ملحمة كان أم سيرة أم حكاية شعبية، أقرب ما يكون إلى التاريخ، فهنا نجد الشخوص التاريخية تقدم كما هى بأسمائها التاريخية، وطبيعى أن تتشكل شخوصها بخيال القاص، فتبتعد بذلك عن التاريخ وإن نبعت منه. أما إذا كان العمل الأدبى ينحو منحى رمزيا، كما هو الحال فى ملحمة ديجنيس وحكاية عمر النعمان، كما نشير إلى ذلك وشيكا ـ فهنا نجد الشخوص التاريخية لا تذكر بأسمائها، وإنما يحمل الاسم دلالة ومغزى أكثر من كونه اسما تاريخيا. ذلك أن الغرض من هذه الأعمال ليس هو حكاية التاريخ بقدر ما هو الإشارة إليه، من بعيد.

على أن الباحثين لم يكتفوا بمحاولة الربط بين شخوص الملحمة بشخوص تاريخية، وإنما عقدوا المقارنات بين النماذج الأدبية العربية والبيزنطية. على أن مقارناتهم لم تتخذ طابعا منظما، وإنما هى إشارات عابرة لمحاولة الربط بين النتاج الشعبى العربى والنتاج الشعبى البيزنطى.

وها هى ذى بعض لفتاتهم، وهى تتركز حول المقارنة بين حكاية عمر النعمان بصفة خاصة وبعض نماذج الأدب الشعبى البيزنطى.

لقد رأى جريجوار وجسون أن التشابه قوى بين شخصيتى رومزان فى حكاية عمر النعمان وديجنيس، فكلاهما مخلط بمعنى أنهما ينتميان إلى

أصل عربى بيزنطى على حد السواء. وكما أن رومزان فى نهاية حكاية عمر النعمان، عقد محاكمة ليقضى على قطاع الطرق والمفسدين فى الدولة، فإن ديجنيس كان يسعى أولا إلى القضاء على العناصر التى تهدد أمن الدولة دائما أبدا[1].

فحكاية عمر النعمان تحكى أنه بينما كان رومزان وكان مكان جالسين خارج بغداد بعد أن اجتمع شملهما، «إذ ظهر لهما غبار قد علا وطار حتى سد الأقطار، وقد أتى لهم من التجار صارخ يستغيث وهو يصيح ويقول، يا ملوك الزمان. كيف أسلم فى بلاد الكفر وأنهب فى بلادكم وهى بلاد العدل والأمان. فأقبل عليه الملك رومزان وسأله عن حاله. فحكى له التاجر كيف أنه كان يسير ببضاعته، فطلع عليه جماعة من العربان، وأخذوا كل ما كان معه. فما كان غير ساعة حتى أسر الجميع وكانوا ثلاث مائة فارس مجتمعين من أوباش العرب. فلما أسروهم أخذوا ما معهم من مال التاجر وشدوا وثاقهم، وطلعوا بهم إلى مدينة بغداد. فعند ذلك جلس الملك رومزان، هو واين أخيه الملك كان مكان على تخت واحد، ثم عرض الجميع بين أيديهما، وسألوهم عن حالهم وعن كبارهم، فقالوا: ما لنا كبار غير ثلاثة أشخاص وهم الذين جمعونا من سائر النواحى والأقطار. فقالا لهم ميزوهم لنا بأعيانهم. فميزوهم لهما فأمر بالقبض عليهم، وإطلاق بقية أصحابهم بعد أن أخذ جميع ما معهم من الأموال وقام بتسليمه للتاجر».

---

(١) Grégoire et Gossens: Les recherches récents sur l'epopée byzantine - (L'Antiquité classique, December 1932) p. 427-8.

وقد اتضح أن أحد هؤلاء الثلاثة الأشرار هو البدوى الذى كان قد اختطف نزهة الزمان فى أثناء مغامراتها القاسية بعد أن أدت فريضة الحج، وباعها لتاجر سلمها بدوره إلى أهلها. ولما سمعت نزهة الزمان ذلك من البدوى، وكان يجهلها ـ همت بقتل البدوى. ولكن رومزان منعها حتى يستمعوا إلى بقية مغامرات هذا الرجل الشرير. فقال لهم: «اعلموا أنى من مدة يسيرة أرقت ليلة أرقا شديدا، وما صدقت أن الصباح طلع. فلما أصبح الصباح، قمت من وقتى وساعتى وتقلدت بسيفى وركبت جوادى، وأعتقلت رمحى وخرجت أريد الصيد والقنص. فواجهتنى جماعة فى الطريق فسألونى عن مقصدى فأخبرتهم به فقالوا: نحن رفقاؤك. فنزلنا كلنا مع بعضنا. فبينما نحن سائرين، وإذا بنعامة ظهرت لنا فقصدناها، ففرت من أيدينا وهى فاتحة أجنحتها.. ولم تزل شاردة ونحن خلفها إلى الظهر حتى قربنا من برية لانبات فيها ولا ماء ولا يسمع فيها غير صفير الحيات وزعيق الجان وصريخ الأفيال. فلما وصلنا إلى ذلك المكان غابت عنا فلم ندر أفى السماء طارت أم فى الأرض غارت. فرددنا رءوس الخيل وأردنا الرواح. ثم رأيت أن الرجوع فى هذا الوقت الشديد الحر لا خير فيه ولا صلاح وقد اشتد علينا الحر وعطشنا عطشا شديدا ووقفت خيولنا وأيقنا من الموت. فبينما نحن كذلك إذ نظرنا من بعيد مرجا أفيح فيه غزلان تمرح وهناك خيمة مضروبة، وفى جانب الخيمة حصان مربوط وسنان يلمع على رمح مركوز. فانتعشت نفوسنا بعد اليأس ورددنا رءوس خيلنا نحو تلك الخيمة نطلب ذلك المرج والماء. وتوجه إليه جميع أصحابى وأنا فى أولهم. ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى ذلك المرج. فوقفنا على يمين وشربنا وسقينا خيلنا. فأخذتنى حمية الجاهلية وقصدت باب الخباء، فرأيت فيها شابا لا نبات

بعارضه وهو كأنه الهلال. وعن يمينه جارية هيفاء كأنها قضيب بان. فلما نظرت إليها وقعت محبتها فى قلبى. فسلمت على ذلك الشاب فرد على السلام. فقلت يا أخا العرب أخبرنى من أنت، وما تكون لك تلك الجارية التى عندك. فأطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه وقال: أخبرنى من أنت وما الخيل التى معك. فقلت أنا حماد بن الفزاوى، الفارس الموصوف الذى أعد بين العرب بخمسمائة فارس. ونحن خرجنا من محلنا نريد الصيد والقنص فأدركنا العطش. فقصدت أنا باب الخيمة لعلى أجد عندكم شربة ماء. فلما سمع منى ذلك الكلام التفت إلى جارية مليحة، وقال ائتنى إلى هذا الرجل بالماء وما حصل من الطعام. فقامت الجارية تسحب أذيالها والحجال والذهب تشخشخ فى رجليها وهى تتعثر فى شعرها، وغابت قليلا ثم أقبلت وفى يدها اليمنى إناء من فضه مملوء باردا، وفى يدها اليسرى قدح ملآن تمرا أو لبنا وما حضر من لحم الوحوش. فما استطعت أن آخذ من الجارية طعاما أو شرابا من شدة محبتى لها[1]. ثم طلب حماد من الأخ أن يزوجه أخته وإلا قتله بسيفه. ولكن الأخ طلب منه أن يدخل فى مبارزة معه، تحسم الموقف فيما بينهما. وغلب الأخ الرجل البدوى. ولكنه بدلا من أن يقتله ويطرده من المكان، صفح عنه وأدخله الخباء وقدم له طعاما، ومع ذلك فقد ساورت البدوى نفسه أن يقتل الأخ فى غفلة منه. ثم أراد أن يتزوج الأخت قهرا، ولكنها أسرعت وقتلت نفسها.

هذه الحكاية التى حكاها البدوى لرومزان تشبه من وجهة نظر الباحثين ما حدث لديجنيس، بينما كان يعيش مع زوجته لفترة من الهدوء والسلام

(١) ألف ليلة وليلة: جـ ٢ ص ١٦، ١٧.

عند منطقة الفرات. فقد فاجأه فيليبابوس ـ زعيم قطاع الطرق ـ مع أنصاره مرة أخرى، وأراد أن يخطف زوجة ديجنيس. ولكن ديجنيس طلب منه أن يكون أنبل من ذلك، وأن يدخل معه فى مبارزة فردية، فإن غلبه فله ما يطلبه. ووافق فيليبابوس وغلبه ديجنيس وعاد فصفح عنه. ومع ذلك فقد دبر فيليبابوس مكيدة أخرى بمساعدة البطلة مكسيمو وهاجما ديجنيس وزوجته مرة أخرى. ولكن ديجنيس تمكن من هزيمتهم جميعا، فولوا هاربين.

فإذا أضيف إلى ذلك أن رومزان كان سببا فى إقرار السلام فى المنطقة، فإن ملامح شخصية رومزان فى الحكاية العربية تتفق تماما مع ملامح شخصية ديجنيس فى الملحمة البيزنطية.

ومرة أخرى يحاول جريجوار أن يعقد مقارنة بين شخصية من شخصيات حكاية عمر النعمان وهى شخصية شراكان، وبين شخصية بيزنطية فى أغنية خرزانيس التى سبق أن عرضناها هى شخصية خرزانيس نفسه. وفيما يلى الأسباب التى دعته لأن يقرن بين الشخصيتين.

إذا أمعنا النظر فى شخصية شراكان فى حكاية عمر النعمان، فإننا نلاحظ أنها غريبة عن سائر شخصيات الحكاية، فقد كره شراكان منذ بداية الأمر أن يكون له أخ يشاركه الحكم بعد موت أبيه. فلما أنجب الملك عمر النعمان ولدا آخر هو ضوء المكان، حرص على إخفاء هذا الأمر عن شراكان حيث كان الأخير على أهبة المسير لقتال الروم. ثم انكشف الأمر لشراكان بعد رجوعه من القتال، وكان ذلك وقع سيىء فى نفسه. فلما قدم له أبوه إحدى الخرزات السحرية ليحتفظ بها لنفسه، رماها له. فلما وصلت ابريزة إلى بغداد ليتم زواجها من شراكان، طمع فيها الملك عمر

النعمان ودخل بها غدرا. وكان هذا خاتمة العلاقة بين الأب وابنه. فرحل الابن ليحكم دمشق بعيدا عن أبيه وعن إخوته.

ثم حدثت بعد ذلك حادثة زادت من غرابة موقف شراكان بالنسبة لأسرته. ذلك أن التاجر الذى وقعت فى حوزته نزهة الزمان بعد مغامراتها مع البدوى، أوصلها بطريق الصدفة إلى شراكان الذى لمس فيها أصلها الطيب وتزوجها. ومعنى هذا أن شراكان تزوج بأخته التى يجهلها، لأنها لم تكن تعرفه، كما لم يكن يعرفها بعد تلك الغيبة الطويلة. بل إنه أنجب منها بنتا هى قضى فكان.

ولم يظهر شراكان بعد ذلك على مسرح حوادث الأسرة إلا بعد أن استعان به أخوه ضوء المكان على محاربة الروم. وقد قتل شراكان فى نهاية الأمر بيد الداهية شواهى ذات الدواهى.

وهنا يتساءل جريجوار عن السبب فى كون شخصية شراكان غريبة إلى هذا الحد عن سائر أفراد أسرة عمر النعمان، على الرغم من أنه الابن الأكبر الذى يحق للأب أن يحتفل به وأن يهيئه للحكم من بعده. على أنه ما لبث أن وجد لذلك تفسيرا من خلال أغنية خرزانيس البيزنطية.

وتحكى هذه الأغنية أن البطل خرزانيس قد أحب فتاة يبدو أنها عربية الأصل، وبعد أن وعدته الفتاة بالزواج به، رجعت وتنكرت له فى وقت حرج، حينما أستعد الجميع ووفدت القسوس لعقد قران خرزانيس على الفتاة. عندئذ تنكر الفتى فى زى امرأة ظلت تتردد على الفتاة حتى اطمأنت له وسمحت له بالمبيت عندها. وتمكن الفتى أن يسقيها البنج ويدخل بها.

فلما أفاقت الفتاة وعرفت ما حدث لها عن طريق رؤيا رأتها، ذهبت لترفع أمرها إلى ملك بابليون. فاستدعى الملك خرزانيس لتوه وطلب منه أن يتزوج الفتاة زواجا شرعيا. عندئذ سخر خرزانيس من الملك وطلب منه أن يتزوجها هو إن شاء. أما هو فلن يتزوج بها لأنه لم يتعود قيد الحياة الزوجية. ولما لمس ملك بابليون منه هذا الاصرار تزوج بالفتاة إنقاذا لمصيرها.

ويرى جريجوار أن أنشودة خرزانيس انتشرت لدى العرب، وقد بدا فيها احتقار الروم للعرب من ناحيتين: إهمال الفتى البيزنطى للفتاة العربية بعد أن دخل بها غدرا ثم امتهان شخصية ملك بابليون ـ وهو ليس سوى بديل، من وجهة نظر جريجوار، للملك العربى ـ حينما اضطر للزواج من الفتاة العربية إنقاذا لمصيرها. وقد شاء العرب ـ من وجهة نظر جريجوار كذلك ـ أن ينتقموا لذلك فى أدبهم الشعبى. فأخذوا شخصية الفتى البيزنطى وأدخلوها فى حكايتهم «عمر النعمان»، وكان هو شراكان الذى يتشابه اسمه مع اسم البطل خرزانيس. وهذا يفسر لنا علاقة شراكان الغريبة بأسرته. كما أن امتهان عمر النعمان لابريزة يعد مرة أخرى انتقاما من العرب لما حدث للفتاة العربية مع الفتى البيزنطى، فقد انعكس الوضع فى الحكاية العربية فأصبحت الفتاة بيزنطية، والغادر بها عربى[1].

هذه هى خلاصة رأى جريجوار فى العلاقة بين الحكاية العربية والأغنية البيزنطية. وهى محاولة طريفة على أى حال تدلنا على المجهود الذى بذل فى بيان وجوه التبادل والتأثير بين الأدبين الشعبيين العربى والبيزنطى. وأن

(١) Grégoire: Echanges Epiques Arabo - Greco (Byzantion 1932, VII) p. 372.

كنا نرى أن تبادل الأفكار الانتقامية التى تمتلىء بها الآداب الرومية، والعربية، ليس سوى صدى طبيعى للموقف العدائى بين الأمتين دون أن يكون الانتاج المحدد صدى مباشرا لانتاج آخر بعينه. وسوف نفيض فى شرح ذلك حينما نتعرض لبحث وجوه المقارنة بحثا تفصيليا.

هذه هى خلاصة رأى جريجوار فى العلاقة بصدد المقارنة بين الآداب العربية البيزنطية ونود الآن أن نفرغ إلى عقد مقارنات تفصيلية منظمة بين الأدبين.

الفصل الثانى

موضوعات المقارنة

١ ـ الأفكار السياسية:

لا يعكس الأدب الشعبى البيزنطى والعربى المعارك الحربية التى نشبت بين الطرفين فحسب، وإنما تعكس الظروف التى عاشتها كل من الدولتين بصفة عامة. وقد سبق أن وضحنا كيف كانت كل من الدولتين العربية والرومية تعانى تفككا فى الداخل، نتيجة للثورات الداخلية، ونتيجة للصراع الدائب على الحكم. وقد تشابهت ظروف الدولتين الداخلية والخارجية، إلى درجة أنه يمكننا أن نقول إن شعبى العربى والروم قد عانا من مشكلات متشابهة تماما. ويكفى أن ندكر القارىء بثورة قرياص ومانويل ولجوئهما إلى العرب، وبثورة نصر بن شبث وبابك الخربى وتعاونهما مع الروم. كما نحيله على قراءة أخبار الحروب الدائبة بين العرب والروم قرونا طويلة، لكى يدرك كيف أن أحوال الدولتين الخارجية كانت غير مستقرة تماما.

أما من الناحية الداخلية فى البلاد العربية، فيكفى أن نقرأ شعر الشعراء الذى يعبر عن ضيق الناس بأحوال بلادهم. فابن حبيات الشاعر الكوفى يقول بعد أن قتل المنصور وزيره أبا أيوب سليمان.

يا الملوك تحسد من أعطته طوعا أزمة التدبير
إذا ما رأوا له النهى والأمر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص سليما ن ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

أو نقرأ قول سليم بن يزيد العدوى يهجو آل العباس بالتصريح لا بالتلميح.

حتى متى لا نرى عدلا نسربه ولا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به إذا تلون أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداء لادواء له وقائد ذى عمى يقتاد عميانا

حتى ندرك يأس الناس من صلاح أحوالهم.

ولم تكن الدولة البيزنطية أسعد حالا فى أحوالها الداخلية من الدولة العربية. فنحن نقرأ أن قسطنطين السادس قد سملت عيناه بأمر من أمه حينما رفض أن يخضع لأوامرها. كما نقرأ أن نقفور (٩٦٩ ـ ٦٧)م رغم ما بذله من جهد فى سبيل إقرار أحوال دولته، قتل بيد أكبر قواده وهو جون تسيمسكس.

وفضلا عن ذلك فقد كانت الخلافات الدينية فى الدولة البيزنطية من أقوى الأسباب التى دعت إلى ظهور الخارجين عليها والمناوئين لحاكمها.

وقد كانت ثورة البولصيين الذين دوخوا أباطرة الدولة البيزنطية زمنا طويلا ثمرة لذلك الصراع الدينى كما سبق أن أشرنا.

وعلى ذلك يمكننا أن نتصور مبلغ ما عاناه كل من الشعبين العربى والبيزنطى نتيجة هذا الجو المضطرب على الدوام. وليس غريبا بعد ذلك أن يعبر كل شعب عن رغباته وآماله، بل ويحققها فى أدبه إذا كان يئس من تحقيقها فى عالم الواقع.

والنتيجة التى خلص منها من كل هذه النماذج الأدبية التى سبق عرضها، هى أن الشعبين قد حققا السلام والهدوء، بعد أن أخمدا الحروب المستعرة فى منطقة الحدود، وقضيا على المتمردين وقطاع الطرق، وعلى القوى المنافقة التى تدعمها كل عناصر الضعف والفساد.

غير أن هناك ظاهرة تسترعى النظر، وهى الحرص على أن يكون البطل الذى يحقق النصر فى النهاية يجمع بين الجنسين العربى والرومى. حقا أن هذا لم يتحقق بوضوح فى سيرة الأميرة ذات الهمة، وذلك لأنها كما قلنا أكثر التصاقا بالتاريخ ـ ولكنها مع ذلك لا تخلو من هذه الإشارة. فبحرون ولد البطال ومذبوحون ولد عبد الوهاب، قد ولد كل منهما من أم رومية قدر لها أن ترجع إلى بلادها إما أسيرة أو برغبتها. وهناك تلد ابنها الذى يشب ويترعرع فى حضن أقربائه من الروم. ولكنه يرجع بعد ذلك إلى بلاد المسلمين حيث ينضم إلى صفوفهم بعد أن يعلن إسلامه.

أما فى حكاية عمر النعمان، فإننا نلاحظ أن رومزان الذى تم على يده نصرة الإسلام، كان مخلطا، وبالمثل كان ديجنيس. بل إن الرغبة المتعمدة

ديجنيس فى أن يكون البطل مخلطا، تبدو منذ البداية حينما اتخذ الاسم، ديجنيس أكريتاس ويعنى المدلد حامى الحدود عنوانها لها. فإذا أضفنا إلى ذلك أننا لا نحس عداوة الروم لرومزان بعد التئامه مع العرب، إذ لم يشهر السلاح ضدهم، كما لم يشهروا هم السلاح ضده، وبالمثل فإن عداوة ديجنيس للعرب ليس لها أثر فى الملحمة، وإنما ركز ديجنيس جهاده حول محاربة القوى التى تعيث فى البلاد فسادا ـ أمكننا أن نتساءل عن السبب الذى دفع الشعبين لأن يجعلا البطل جامعا لعنصرين صورا فى التاريخ بأنهما أكبر عدوين.

وهنا نقول ـ إن الشعبين ـ بعد فترة الاضطراب والقلق التى عاشها كل منهما، كان يتوقان حقا إلى السلام والهدوء. وحيث أن السلام لا يتمثل فى انتصار شعب على آخر، وإنما يتمثل أكثر من ذلك فى محاربة الضغينة والحقد اللذين يملأن النفوس ويدفعانها دائما أبدا إلى القتال، فإن السلام الدائم لن يتم إلا إذا عاشت الشعوب حياة أمن وسلام مع بعضهما الآخر، وكأنهما شعب واحد لا يسعى إلى الانتصار الحربى بقدر ما يسعى إلى محاربة كل ما من شأنه يفسد جو السلام.

لقد رأى رومزان قبل أن يتم لقاؤه الأكبر مع أقربائه من العرب ـ رؤيا لم يتمكن من تفسيرها، فجمع الرهبان «ليفسروها له لكنهم عجزوا عن ذلك وقيل له أن هذه الرؤيا لا يفسرها لك إلا الوزير دندان ـ وزير كان مكان الذى كان قد أسر معه «فاستدعاه رومزان فى أسره وحكى له الرؤيا وقال: «رأيت أنى فى حفرة على صفة بئر أسود وكأن أقواما يعذبوننى فأردت القيام فلما نهضت وقفت على أقدامى وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة،

ثم التفت فرأيت فيها منطقة من ذهب فمددت يدى لآخذها. فلما رفعتها من الأرض رأيتها منطقتين فشددت وسطى بهما فإذا هما قد صارتا منطقة واحدة. وهذا أيها الوزير منامى والذى رأيته فى لذيذ أحلامى فقال له الوزير دندان: أعلم يا مولانا السلطان أن رؤياك تدل على أن لك أخا وابن أخ أو ابن عم أو أحد يكون من أهلك من لحمك ودمك. وعلى كل حال هو من العصب يجتمع شملك به. فلما سمع الملك هذا الكلام نظر إلى كان مكان ونزهة الزمان وقضى فكان والوزير دندان ومن معهم من الأسارى وقال فى نفسه إذا رميت رقاب هؤلاء انقطعت قلوب عسكرهم بهلاك أصحابهم ورجعت إلى بلادى عن قريب لئلا يخرج الملك من يدى. ولما صمم على ذلك استدعى السياف وأمره أن يضرب رقبة كان مكان من وقته وساعته، وإذا بداية الملك قد أقبلت فى ذلك الساعة فقالت له: أيها الملك السعيد على ماذا عولت فقال لها عولت على قتل هؤلاء الأسارى الذين فى قبضتى وبعد ذلك أرمى رؤوسهم إلى أصحابهم ثم أحمل أنا وأصحابى عليهم حملة واحدة ونقتل الذى نقتله ونهزم الباقى وتكون هذه وقعة الانفصال وأرجع إلى بلادى عن قريب قبل أن يحدث بعد الأمور أمور فى مملكتى»[1].

ولكن مطامع الملك رومزان الشريرة سرعان ما تبدلت بمطامع خيرة بعد أن تحققت الرؤيا فى عالم الحقيقة. وإذا نحن تمعنا الرؤيا وحاولنا تفسيرها تفسيرا أدبيا، فإننا نجد إشاراتها تتفق مع رغبة الشعوب الملحة، وهى السعى إلى العيش معا فى سلام بعيدا عن كل الضغائن والأحقاد، فقد عجز الرهبان عن تفسير الرؤيا ولم يفسرها لرومزان سوى الوزير العربى دندان.

(١) ألف ليلة وليلة جـ ٢.

ومعنى هذا أن الرهبان المتعصبين لدينهم لا يمكنهم أن يحلوا مشكلة رومزان وإنما يحلها له عدوه أو بتعبير آخر ذلك الذى يتوهمه عدوا لدودا له. ثم إن رومزان رأى نفسه فى حفرة على صفة بئر أسود، وهى حالة الضغينة والعداوة التى كان يعيشها، ولم يستطع أن يتخلص من إحساسه بتلك الحفرة الضيقة السوداء إلا بعد لمح فى البئر الأسود، أى فى وسط تلك الضغائن، المنطقة الذهبية، وشتان بين شعوره بالضيق فى الحفرة السوداء، وشعوره بالفرح عندما لمح المنطقة الذهبية.

إن الحفرة التى على صفة البئر الأسود هى تلك الرغبة الشريرة التى أفصح عنها رومزان لمربيته، إنها الرغبة فى القتل الذى يظن أنه الوسيلة الوحيدة لتوطيد ملكه ومملكته. ولكن المنطقة الذهبية تغلبت على نوازع الشر حينما شد رومزان بها وسطه. فإذا رومزان لا يفكر فى الحرب والقتل، وإنما يفكر فى القضاء على النفوس الشريرة التى تفسد السلام والحياة. فقتل البدوى الذى دوخ نزهة الزمان فى الأسواق بأغلى الأثمان. وظل يبحث عن العبد غضبان الذى ارتكب السوء مع أمه ابريزة وتركها وقد فارقت الحياة ثم عثر عليه وقتله. وبالمثل فإن شواهى ذات الدواهى ـ تلك الداهية التى دوخت المسلمين فقتلت عمر النعمان وشراكان ـ لم تفلت من يده، فاحتال عليها حتى صلبها على باب بغداد.

وبالمثل فإن ديجنيس لم يشغل نفسه بحروب مع العرب أو مع الروم، بقدر ما شغلها بتحقيق السلام. كما أنه لم يستقر فى مملكته يحكم ويأمر ويدير شئون المعارك الحربية، إما ترك العاصمة وقصورها ونزح إلى منطقة الحدود ليرعاها ويستشعر جو السلام بجوار نهر السلام.. وحينما استدعاه

الامبراطور بازل ليتوجه، رفض أن يرحل إليه، لأنه لا يسعى لعمل يتوج من أجله وإنما يسعى إلى عمل يتوج الشعوب جمعاء بالحب والخير. ورفض أن يرحل إلى الامبراطور وطلب منه أن يحضرهو إليه إن شاء. وهذه إشارة إلى أن ديجنيس لم يكد يسعى إلى مظاهر الملوكية وبهائها،، وإنما يحق للملوك أن يتركوا المظاهر الخادعة إلى حيث يعيش ديجنيس حتى يروا بأنفسهم كيف يمكن أن تتغير الحياة إلى أفضل وأجمل لو أنهم فعلوا ما يفعله ديجنيس.

لقد خرج كان مكان مطرودا من دياره، بعد أن استولى عليها قوم غرباء. فأخذ يسير حتى وصل إلى نهر الفرات. وهناك توضأ وصلى ودعا الله ثم عبر عن آماله وأحزانه فقال.

خرجت وفـى أمـلـى عـودة ولكـننى لـسـت أدرى متـى
وحـيـرنى أنـنـى لـم أجـد سبيـلا لـدفع مـا قـد أتـى

ولكن الشر لا يدوم فى حياة تدفعها القوة الخيرة إلى أمام. فسرعان ما انشق الجيش والشعب العربى على الحاكم الأجنبى المغتصب، وخرجوا من ديارهم يتبعون كان مكان. عندئذ اشتد ساعد القوة الخيرة فحاربت القوة الشريرة وانتصرت عليها.

وبالمثل فقد زهد ديجنيس فى حياة المؤامرات والصخب داخل بلاده، وخرج ليستقر عند نهر الفرات ليحمى مياهه من أن تتلوث بدم القتلى.

أما فى سيرة الأميرة ذات الهمة فقد كان عقبة يشكل خطرا على المسلمين أشد من خطر الروم. وبما كانت فرحة الشعب العربى بصلب

عقبة على باب الذهب أشد من فرحتهم بفتح القسطنطينية. ففى الوقت الذى قتل فيه عقبة هتف المسلمين: «قل جاء وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا».

على أن هذا النصر لم يتم للمسلمين إلا بفضل نزوح أسرة بنى كلاب المحاربة إلى منطقة الحدود، والقيام بعبء حمايتها وتطهيرها من فساد المشاغبين والأشرار. وهكذا يمكننا أن نلخص الأفكار السياسية التى عبر عنه الأدب الشعبى العربى والبيزنطى الذى نشأ فى منطقة الحدود فيما يلى:

أولا: السعى إلى قرار السلام بفضل القوة الشعبية. وإذا كان أبطال حكاية عمر النعمان ينتسبون إلى ملك كبير، إلا أن الحكاية تشير بطريقة رمزية إلى التغيير النفسى الذى حدث لضوء المكان، وهو الحاكم التالى للأبيه، بعد أن مرض فى أثناء رجوعه من الحج، ولم يتمكن من الرجوع إلى بلاده، واضطر هو وأخته نزهة الزمان إلى أن يخوضا مغامرات دفعتهم لأن يعيشا حياة الشعب البائس، وأن يتعرفوا فى أثناء ذلك على النفوس الخيرة والنفوس الشريرة. ويكفى هذا لأن يكون أبطال حكاية عمر النعمان شعبيين، كما هو الحال مع أبطال سيرة الأميرة الهمة والبطل ديجنيس.

ثانيا: حيث أن إقرار السلام لا يتم حقا وبصورة دائمة إلا بعد أن يسود السلام بين الشعوب جميعا، أى بعد أن يتخلص كل شعب من الضغينة والحقد والرغبة فى الانتقام، فإن البطل المخلط الجنس، يجسد التئام الشعوب واتحادها. وقد يقال أن الصراع الطويل بين العرب والروم، نشأ عنه بالضرورة جنس مختلط، وأن هذا بدوره ترك أثره فى الأدب الشعبى. على أننا لا نرى هناك ضرورة لأن يجمع البطل بين العنصرين إلا إذا كان هناك هدف وراء

ذلك. والبطل العربى الذى ينصر الدولة الإسلامية والدين الإسلامى أولى أن يكون عربيا صرفا، وبالمثل فإن البطل البيزنطى الذى قضى عمره حاميا لحدود بلاده، أولى أن يكون بيزنطيا صرفا.

ثالثا: إن العناصر الفاسدة التى تعيث فسادا فى الدولة أشد خطورة من تهديد العدو الخارجى. فهى كالسرطان الذى يتسرب فى جسم الإنسان بصورة خفية حتى يقضى عليه. ولولا وجود هذه القوى الفاسدة لما قوى العدو الخارجى، ولما استطاع أن يكشر عن أنيابه. فهى تمثل إذن أصل كل الشرور ولن يقضى عليها سوى الشعب نفسه.

ولا يعنى هذا أنه من المحتم أن يجتث الشر من جذوره فلا يكون له أثر على الإطلاق، فالشر عنصر لازم للحياة وهو يعيش فى كل زمان ومكان، ولكن يقظة الشعب فى وسعها أن تقضى عليه كلما نشطت قواه. ولعل هذا ما أشارت إليه النماذج الأدبية السابقة حينما كانت تظهر القوى الشريرة للبطل بين الحين والآخر، ولولا يقظته لاستفحلت واستشرت.

٢- صورة البطل

وطبيعى أن تتشابه صورة البطل فى كل من الأدبين العربى والبيزنطى بعد أن تلاقيا فى الأفكار السياسية والأفكار الإنسانية.

فشخصية الأميرة ذات الهمة شديدة الشبه بشخصية ديجنيس. فكلاهما يصور الشخصية المستقلة التى يصبو إلى الكمال حتى تبلغه.

فقد انتُزعت ذات الهمة نفسها من حضن الوالدين ورعايتهما، وشاءت أن ترسم مستقبلها بنفسها فرفضت الحياة الزوجية التى تسعى إليها كل

امرأة، لأن الزواج يشتت مطامحها، ويدفعها إلى أن تلبى مطامع الرجل لا مطامع نفسها، اللهم إلا إذا التقت المطامع، وهو ما لم يحدث فى السيرة. ثم حاربت ابن عمها ظالم الذى يمثل الارادة غير الكاملة، بل الارادة التى تسعى إلى الشر بكل قواها حتى استطاعت أن تتخلص منه كلية. ولما كانت تأبى على ابنها أن يتربى فى هذه البيئة المتطاحنة التى لا يسعى أفرادها إلى تحقيق الكمال، فقد انتزعت ابنها من تلك البيئة لكى يتربى فى حضن الجهاد وعالم الفروسية.

وهكذا استقرت ذات الهمة مع شعبها فى منطقة الحدود لترعاها، وتسهر على تحقيق آمال الشعب العربى. ووزعت جهودها بين القضاء على الفساد الداخلى والقوة المتربصة بالدولة فى الخارج. وكانت مثال القائد الفارس الذى لا يسعى إلى خلق الضغينة والبغضاء، بقدر ما يسعى إلى إزالتها. فإذا سعى بعض أفراد جيشها إلى الثورة ضد الخليفة، حالت بينهم وبين ذلك، لأن مهمتهم يجب أن تتركز حول محاربة القوى الفاسدة الفعلية. والشعب اليقظ المتبصر بأمره لا يحكمه حاكم غير صالح. وهو إن حكم فترة، فلن تطول مدة حكمه.

ومع ذلك لم ينجح حاكم فى إخضاعها لإرادته، وكان ردها على رسول المأمون «ودعنا فى وجوه الكفرة، لا لك ولا علينا، فيخرج الآمر من يديك ويدينا»، أكبر دليل على مبلغ قوة شخصيتها واستقلالها.

وهى بطلة لا تعرف اليأس لأن قوة أملها فى تحقيق هدفها، وشدة يقينها

من ذلك، كانا أقوى من كل يأس. فطالما حاربت وأسرت وجرحت، دون أن يثبط ذلك من عزمها.

وبالمثل تخلص ديجنيس من سيطرة والديه ومن رعايتهما له، فلم يعد لهما أثر فى حياته بعد أن ترك بلاده برغبته وإرادته واستقر فى منطقة الحدود. ولم تلعب زوجته دورا فى القتال الذى شغل ديجنيس به نفسه وإنما كانت مكملة لعالم الجمال والحب الذى يسعى إلى أن يعيش فيه، بل أن يعيش كل فرد فيه.

ولم يكن ديجنيس يسعى لسلطة أو نفوذ،وإنما تركهما وراءه لأصحابهما لكى يكشف لهم عن عيوب الحياة التى ينبغى عليهم أن يشغلوا أنفسهم بها، وأن يسعوا لمحاربتها، وان شاءوا أن يعملوا على راحة الشعب كله، لا على تحقيق أطماعهم الفردية فحسب.

وذاع صيت ديجنيس حتى بلغ مسمع الامبراطور بازل، فشاء الأخير أن يبارك جهاده. ولكنه رد على رسول الامبراطور ردا فيه من اللياقة والاعتداد بشخصيته المستقلة الحرة الشيء الكثير لقد قال له: «سيدى إننى لست سوى أدنى عبد لك، إذا ما قورنت قوتى بقوتك. ولست أدرى ما الذى يعجبك من صفاتى يا سيدى، فأنا لست سوى رجل شعبى لا يجرؤ على الحياة فى جوك الملوكى. ومع ذلك ففى وسعى أن أحقق كل شيء بارادة الله. وإذا شاء سيدى أن يرانى، فها أنذا عند نهر الفرات، على مسافة تستغرق منك بضعة أيام. هنا ترانى إذا رغبت فى ذلك. ولا تظن يا سيدى أننى أرفض المجيء إليك، وإنما أخشى أن أقابل رجالك الذين يتعاونون معك،

وجها لوجه، وأن اسمَع منهم ما يحملنى على القضاء عليهم. فهذا ما أفعله حينما تصل إلى مسمعى كلمة يأباها»[1].

فلما وصلت الرسالة إلى الامبراطور، رضخ لمطلب ديجنيس ورحل إليه بنفسه ليحييه. فلما أبصره قال له: «إن مظهرك الخارجى ينطق بأفعالك، وجمالك الخارجى ينطق بجمالك الداخلى.

وكم أتمنى أن يكون فى بلادنا أربعة من أمثالك. هاك يا بنى سلطانى، خذ منه ما تشاء»[2].

فرد عليه ديجنيس قائلا: «سيدى إن الصواب ألا نأخذ، وإنما الأفضل أن نعطى. وإذا كان لى أطلب منك شيئا، فهو أن تشفق على الفقراء، وأن توزع عدلك بين الناس، وأن تعفو ولكن لا إلى حد اللين. وأن تكون مؤمنا بالله إيمانا صادقا. هذه يا سيدى هى الوسائل التى توصلك إلى الحق، وهى سلاحك ضد أعدائك: فالحكم ياسيدى لا يغتصب بالقوة، ولا يمكنك أن تحتفظ به بالقوة»[3].

والبطل، وإن كان محاربا بطلا، إلا أن هذا لا يصرفه عن الإحساس بالجمال. فقد أشرف كان مكان على أرض معشبة الفلوات، مليحة النبات، وهذه الأرض قد شربت من كئوس الغمام على أصوات القمرى والحمام، فاخضرت رباها وطاب فلاها[4].

---

(١) الملحمة من البيت ٢٠٦٧ ـ ٢٠٧٩.
(٢) الملحمة من البيت ٢١١٢ إلى ٢١١٨.
(٣) الملحمة ٢١٠٠ إلى ٢١٠٣.
(٤) ألف ليلة وليلة جـ ١ ص ٣١٦ «جـ ١ مكتبة الجمهورية».

فجلس كان مكان فى هذا المكان، وهو بجواره النهر يستمع إلى خريره، وأخذ يفكر بعد أن طرد من بلاده ـ فيما كان وما سيكون.

وبالمثل كان ديجنيس يستمتع بالجمال كلما تمكن من ذلك: «لقد قالت لى حبيبتى: سيدى هلا لبيت لى رغبة؟ إننى أود أن تأخذ نايك وتعزف عليه، فتبعث الحياة إلى نفسى، وتزيل مخاوفها من الوحوش والمشاغبين ـ وما كدت أفعل هذا حتى انطلقت تغنى. فشعرت الجمال فى كل مكان حولى. لقد أخذت موسيقى الناى وغناء حبيبتى يرددان صداهما فى التلال التى حولنا، حتى بلغا مسمع من كانوا على بعد منا[1]»

وإذا كان الحب رفيق الجمال، فغالبا ما نجد البطل محبا عاشقا. وهكذا كان مكان، وهكذا كان الصحصاح وعبد الوهاب والبطال. وهكذا كان ديجنيس. ولكن الحب، وإن كان قد استقر فى قلوبهم، إلا أنه لم يكن يلهيهم عن أداء واجبهم.

والبطل مسامح كريم، لا يستغل قوته فى القضاء على الشرير دفعة واحدة، وإنما يترك له فرصة ليصلح أمره. فقد استمع كان مكان ـ بينما كان يجلس وحيدا ـ إلى صوت طارق ليل يتغنى بشعره. فسعد بذلك وظنه رفيقا له فى وحدته. فنادى عليه كان مكان. فإذا بالرجل يرد عليه قائلا: «أيها المنادى السامع لإنشادى. من تكون من الفرسان، وهل أنت من الإنس أم من الجان. فعجل على بكلامك، قبل دنو حمامك فقال كان مكان: لاتفعل يا أهل العرب لأن أهلى لا يشترونى بفضة ولا ذهب. وأنا رجل

(١) الملحمة من البيت ٢٥٦١ إلى ٢٥٧٣.

فقير ولا معى قليل ولا كثير. فدع عنك هذه الأخلاق واتخذنى من الرفاق، واخرج بنا من أرض العراق ـ فلما سمع صباح ذلك غضب وقال له: ويلك تراودنى فى الجواب يا أخس الكلاب، أدر كتافك وإلا أنزلت عليك العذاب. فتبسم كان مكان وقال: كيف أدير الكتاف، أما عندك إنصاف، أما تخشى معايرة العربان حيث تأسر غلاما بالذل والهوان وما اختبرته فى حومة الميدان، وعلمت أهو فارس أم جبان. فضحك صباح وقال: يا للعجب إنك فى سن الغلام ولكنك كبير الكلام، لأن هذا القول لا يصدر إلا عن البطل المصطدام. فقال له كان مكان: الإنصاف أنك إذا شئت أخذى أسيرا خادما لك، فعليك أن ترمى سلاحك وتخفف لباسك وتصارعنى، وكل من صرع صاحبه بلغ منه مرامه وجعله غلامه. فضحك صباح وقال: ما أظن كثرة كلامك إلا لدنو حمامك. ثم رمى سلاحه وشمر أذياله ودنا من كان مكان وتجاذبا، فوجده البدوى يرجح عليه، كما يرجح القنطار على الدينار، ونظر إلى ثبات رجليه فى الأرض فوجدهما كالمثذنتين المؤسستين أو الجبلين الراسخين. فعرف من نفسه قدر باعه، وندم على الدنو من صراعه، وقال فى نفسه ليتنى قاتلته بسلاحى. ثم إن كان ـ مكان قبضه وتمكن منه وهزه، فاحس صباح أن أمعاءه تقطعت فى بطنه. فصاح أمسك يدك يا غلام. فلم يلتفت كان مكان إلى ما أبداه من الكلام بل حمله من الأرض وقصد به النهر. فناداه صباح قائلا: ما تريد أن تفعل بى؟ فقال: أريد أن أرميك فى هذا النهر... فصاح صباح ونادى: يا فارس البطاح لا تفعل فعل القباح. أطلقنى... فحطه كان مكان على الأرض. فلما رأى نفسه خالصا، ذهب إلى ترسه وسيفه وأخذهما وصار يشاور نفسه على الهجوم عليه.

فعرف كان مكان ما يشاور عليه نفسه. فقال له لقد عرفت ما فى قلبك، حيث أخذت سيفك وترسك، فإنه قد خطر ببالى أنه ليس لك يدفى الصراع تطول، ولو كنت على فرس تجول لكنت بسيفك على تصول، وها أنا أبلغك ما تختار، حتى لا يبقى فى قلبك إنكار»[1].

ثم هزمه كان مكان للمرة الثانية وأوثقه كتافا وتركه. ولكن صباح رجع وتوسل إليه أن يطلق سراحه. ففعل هذا كان مكان.

بالمثل فقد صارع ديجنيس فيليبابوس ورجاله حينما هجموا عليه، وردهم عنه دون أن يصيبهم بأذى بالغ. فإذا بهم يتراجعون وينظرون إليه «كما ينظر قطيع من الخراف إلى أسد من بعيد. ولكنهم لموا شملهم وهجموا عليه كالكلاب. وهنا احتد ديجنيس فى ضربهم حتى ألقى أحد رؤسائهم على الأرض طريحا، ثم هتف به قائلا: كيناموس، مالك ترتعد هكذا! لا تخشى منى، فأنا لن أضربك وأنت طريحا على الأرض، فليس من عادتى أن أضرب الطرحاء ولكن إذا شئت أن تواجهنى مواجهة الشجعان، فقم واحمل سلاحك. عندئذ هتف به فيليبابوس قائلا: أستحلفك بالله الذى خلق السموات والأرض، والذى منحك كل هذه الفضائل، أن تترك الحرب جانبا وأن نتصالح معنا وسنكون خداما لك». عندئذ أجابه ديجنيس بلهجة ساخرة: «هل أفقت لنفسك يا فيليبابوس، حتى إنك تحكى لنا عن أحلامك؟ ولكن حيث أنك قد ختمت حياتك بهذه التوبة، وهذا التذلل، فقم واصطحب أصدقائك وارحل إلى حيث تريد، فإنك لن تغيب عن عينى حيثما كنت»[2].

---

(١) ألف ليلة وليلة ص ٣١٧.

(٢) الملحمة: من البيت ٢٧٤٤ إلى ٢٧٥٠.

على أن حكايات قطاع الطرق ليست من وحى خيال القصاص، وإنما هى حقيقة واقعة كثيرا ما حكى لنا عنها أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار. مثال ذلك ما يحكى عنه ويقول: «نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفرسه ورجاله وخيامه فى بعض السنين. فركبنا ولقيناهم ظنا منا أنهم يقاتلونا. جاءوا ونزلوا منزلا كانوا ينزلونه واستقروا فى خيامهم. فرجعنا نحن آخر النهار ثم ركبنا ونحن نظن أنهم يقاتلونا، فما برحوا خيامهم. وكان لابن عمى ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت، وهى بالقرب من الافرنج. فجمع الدواب يريد أن يمضى إلى الغله يحملها. فسرنا معه فى عشرين فارسا معدين، ووقفنا بينه وبين الأفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى. فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر رحمه الله، إلى كرم رأينا فيه شخوصا وهم على شط النهر. فلما وصلنا الشخوص التى رأيناها، والشمس فى مغيبها، إذا بشيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر. فقال له حسام الدولة، وكان رحمه الله رجلا جيدا كثير المزاح: يا شيخ أى شىء تعمل هاهنا؟ قال: انتظر الظلام وأسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار. قال: يا شيخ.. بأسنانك تقطع حبال خيلهم؟ قال لا بهذه السكين. وجذب سكينا من وسطه. مشدودة بخيط مثل شعلة النار، وهو بغير سراويل. فتركناه وانصرفنا. وأصبحت من بكرة انتظر ما يكون من الافرنج وإذا بالشيخ جالس فى طريقى على حجر والدم ينزف من ساقه، وقدمه قد جمد. قلت تهنئك السلامة، أى شىء فعلت؟ قال: أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا، ولحقنى راجل وأنا خارج من عسكرهم طعننى أنفذ القنطارية فى فخذى. وسبق بالحصان والترس والرمح وهو مستقل بالطعنة التى فيه كأنها فى سواه. هذا الرجل يقال له الزمر وكان من شياطين اللصوص»[1].

(١) الاعتبار: ص ٤٣.

ومن خصائص البطل كذلك مقدرته على قتل الأسود. ففى سيرة الأميرة ذات الهمة، هجم عبد العزيز العلوى على الأسد وقد تحير مما شاهد. وزعق عليه الأسد زعقة عظيمة وضرب الأرض بيديه وأنشب فيها مخلبيه. ثم وثب على عبد العزيز، ووثب عبد العزيز عليه وضربه. فمع حدة السيف وقوة ساعد عبد العزيز وحدة وثبة الأسد، وقع السيف بين عينيه، فخرج من بين فخذيه فوقع الأسد نصفين. فكبر المعتصم وكبر المسلمون»[1].

وبالمثل كانت لديجنيس مغامرات مع الأسود. فقد كان قادرا منذ صغره على الفتك بها فى سرعة مذهلة»[2].

وليس تصوير مصارعة البطل للأسود من قبيل التصورات الفولكلورية. إذ كثيرا ما تحكى الحكايات الخرافية عن قتل البطل للحيوان القوى وأكله من لحمه أو شربه من دمه حتى يكتسب قوته الجسدية. ولكن البطل هنا يكتفى بقتل الأسد. وهو صدى آخر لما كان يحدث فى الواقع. فالمنطقة التى صور فيها صراع الأبطال، كانت، كما يحكى أسامة بن منقذ مليئة بالوحوش، وبالأسود بصفة خاصة. ومن بين الحكايات الطريفة التى يحكيها بهذا الصدد، إنه خرج مع قومه، فإذا بسبع يعترض طريقهم. «فحمل عليه رجل من الجند كردى يقال له زهر الدولة بختيار القربصى، وقد سمى بذلك للطف خلقته. وكان رحمه الله من فرسان المسلمين. فاستقبله السبع فخاص به الحصان فرماه، وجاءه السبع وهو ملقى. فرفع رجله فتلقمها السبع. وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم، فقلنا له: يا زهر الدولة

(١) الملحمة من ٢١٣٠ إلى ٢١٥٠.
(٢) السيرة: جـ ٥١ ص ٤٤.

لم رفعت رجلك إلى فم السبع؟ قال جسمى كما ترونه ضعيف نحيل، وعلى ثوب غلالة، وما فى أكسى من رجلى، فيها الرانات والخف والساق. فقلت أشغله بها عن أضلعى أو يدى أو رأسى إلى أن يفرج الله تعالى».

ويعلق أسامة على هذا الحدث فيقول: «فهذا حضره العقل فى موضع تزول فيه العقول»[1]. ولعلنا ندرك من ذلك كيف أن نماذج البطولة فى الحكايات الشعبية، لم تكن خيالا صرفا، وإنما ارتكزت إلى حد كبير على الواقع.

والبطل فوق كل ذلك كان يمتلك صفات إنسانية، تتمثل فى يقظة الضمير، والوفاء والمشاركة الوجدانية.

«فقد اتفق أن خرج «كان مكان» إلى الصيد والقنص، وخرج معه صباح، وهو قاطع الطريق الذى سبق أن أشرنا إليه، واستطاع كان مكان أن يحيله إلى إنسان صالح بحيث أصبح لا يفارقه ليلا أو نهارا. فاصطادا عشر غزالات فيهن غزالة كحلاء العيون، صارت تتلفت يمينا وشمالا. فأطلقها. فقال له صباح: لأى شىء أطلقت هذه الغزالة؟ فضحك «كان مكان» وأطلق الباقى وقال: إن من المروءة إطلاق الغزلان التى لها أولاد. وما تتلفت هذه الغزالة إلا لأن لها أولادا، فأطلقتها وأطلقت الباقى فى كرامتها[2].

وقد سبق أن أشرنا أن الصحصاح ـ فى أثناء القيام بمغامراته من أجل الحصول على مهر لابنة عمه ليلى، تقابل مع غزالة انقلبت فى صورة انسية خلصته من فتك الأسد به، فلما سألها الصحصاح ما إذا كانت أنسية

(١) الاعتبار ص ٨٦.
(٢) ألف ليلة وليلة جـ ٢ ص ٧.

أم جنية، وما إذا كانت ذات خدر أم ذات بعل، أجابته الغزالة المسحورة وقالت له: «أنت طماع يا صحصاح.. وسبب طمعك أنك لما أن طاردت الغزالة واصطدتها، ورأيت الوحيدية وهويتها ونسيت بنت عمك ليلى. وفى هذه النوبة قد طردت خلف الغزالة الأخرى وسلمت من الأسد سلامة. ولولا أن من الله عليك بى لكانت حلت بك الندامة وما كان لك كلام إلى يوم القيامة. وبعد هذا تسألنى أنا ذات بعل أو ذات خدر، وتريد أن تطمع روحك فى زواجى، فليت شعرى أى شيء تدل به حتى تخطب البنات والنساء»[1].

وقد سبق أن فسرنا ظهور الغزالة للصحصاح فى قلب الفيافى من الناحية النفسية، فقلنا إنه من قبيل الرؤى التى تظهر للرجال والنساء إثر كبت جنسى نتيجة اضطرارهم للعمل مدة طويلة فى مكان يقتصر العمل فيه على الرجال وحدهم أو على النساء وحدهن. على أننا نعود هنا ونضيف إلى ذلك أن الغزالة المرأة من الممكن أن تكون تجسيدا لمحبوبته التى يساوره خيالها كلما راودته نفسه على خيانتها. أى أنها بتعبير آخر، إشارة إلى ضمير الصحصاح اليقظ.

وقد حدثت لديجنيس حادثتان تمثلت فيهما يقظة ضميره. الأولى وقد أشرنا إليها، وهى حادثة لقائه مع المرأة التى غدر بها الرجل وتركها وحيدة فى قلب الأحراش. وقد ارتكب ديجنيس معها إثما، ولكنه عاد فكفر عن هذا الاثم بأن أرجع إليها الرجل وأرغمه على الزواج الشرعى منها، ثم رجع بعد ذلك إلى زوجته.

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة.

والحادثة الأخرى عندما التقى بمكسيمو البطلة التى جاءت لمحاربته بايعاز من فيليبابوس. وبعد أن هزمها ديجنيس، خلعت عنها رداء التنكر لتوقعه فى حبالها. فإذا بها امرأة رائعة الجمال. وكاد ديجنيس أن يقع فى حبالها، لولا أنه امتطى صهوة جواده وولى مسرعا.

هذه هى الملامح الرئيسية لشخصية البطل الفارس فى الحكايات الشعبية العربية والبيزنطية. وهى مجتمعه، تصور لنا شخصية تقترب كثيرا من الواقع وفقا لمذكرات أسامة بن منقذ. ولا غرو فقد كان فارس العصور الوسطى أقرب ما يكون إلى الكمال. وليس أدل على ذلك من أن يجعل الحاكم الافرنجى منهم هيئة المحكمة التى حكمت فى شكوى أسامة بن منقذ ضد الافرنج. وقد رأينا كيف أن ميلهم إلى الحق دفعهم لأن ينطقوا بحكم فى صالح العرب، لا فى صالح الافرنج. ولم يستطع الملك الافرنجى أن يرد حكمهم أو يعترض عليه، لأن الفارس شخصية تقدرها الدولة ـ كما يقول أسامة بن منقذ ـ كل التقدير.

الموضوعات العامة

إذا كان الأدب الشعبى العربى والبيزنطى الذى أسلفنا ذكره قد نشأ فى ظل العلاقة الحربية بين الدولتين، فنحن نتوقع تشابههما فى بعض الموضوعات، غير تلك التى ذكرناها، وهى الموضوعات التى تتصل اتصالا مباشرا بموضوع القتال.

وتتفق ملحمة ديجنيس مع حكاية عمر النعمان فى طريقة تناول موضوع القتال. فبينما نسمع فى سيرة الأميرة ذات الهمة بين الحين والآخر

صوت المعارك الحربية التى كانت تدور بين العرب والروم، إذ بنا لانكاد نسمع لها صوتا فى كل من ملحمة ديجنيس وحكاية عمر النعمان. ذلك أن كليهما تشيران إلى موضوع القتال من بعيد، ولا تعيشان فى قلب المعارك الحربية. وما يشير حقا إلى جو القتال فى كل منهما، وتشاركهما فى ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة، هو المبارزات الفردية. وهنا يتجسد العداء بين البطل والقوة المناوئة له، فإذا بالسيف يهوى وينفذ ويصيب، وإذا بالخيل تتعثر وتسقط طريحة على الأرض.

وتستخدم المبارزات الفردية بوصفها وسيلة لحسم الموقف بين الطرفين المتعاديين، دون أن يصاب الجمع كله بضرر. ولذلك فإن الجو سرعان ما ينجلى بعد المبارزة فى كل من ملحمة ديجنيس وحكاية عمر النعمان، فى حين أن المبارزة الفردية سرعان ما تنقلب إلى معركة كبيرة فى سيرة الأميرة ذات الهمة، فنتيجة المبارزة لا ترضى جماعة البطل المنهزم، بل إنها على العكس تضرم نار العداوة فى قلوبهم، فإذا بهم يحملون جميعا على الطرف الآخر، وبذلك تبدأ المعركة من جديد.

ومن أبرز مظاهر العداء بين الطرفين فى إنتاجهما الشعبى، تعصب كل طائفة لدينها. ولا يقتصر هذا التعصب على حد إبراز كل طرف لدينه بوصفه الدين الأسمى فحسب، وإنما يتعدى ذلك إلى شكل الجدل الدينى الذى يحاول فيه كل طرف إظهار محاسن دينه ومساوىء الدين الآخر.

فقد أخذ البطال يجادل أحد الرهبان فى موضوع الدين فقال له: «لو كان أيضا صح ما تقول النصارى أن الله أبوه (أى أبو المسيح) فلم ترك الأعداء يصلبوه، وقد أضعتم قدر المسيح بقولكم (إن اليهود صلبوه) ثم جعل ينشد ويقول:

اسمح مقالى يا من فيه معرفة
فالحر من قد وعى لفظى ومن سمعه
يا راهب الدير انصفنى وكن فطنا
ودع كلام النصارى فهى مبتدعة

فرد عليه الراهب وقال: «يا مسلم هذا الذى قتله بعضه كذب وبعضه صدق صحيح، وكان الواجب أن ينزه المسيح عن الصليب ولا يقال إنه رب. ولكن هذا شيء قد وجدنا عليه آباءنا والأجداد. ونريد أن نرجع إلى أدياننا ونفصل بين الأديان. ولكن يا مسلم أنا أخبرك: هل لكم أنتم مثل هذه الكنائس وهذه الصلبان والرهبان والقسوس والشمامسة والمطران، وتلاوة الانجيل والألحان، وهذه الصور اللواتى فى الحيطان، والمذبح والقربان والمترهبات من النسوة؟ . فلما سمع البطل هذا المقال تبسم وقال: يا راهب نحن لنا القبلة والقرآن والنور والإيمان والعفو والغفران، وسورة الواقعة والرحمن والبقرة وآل عمران والرعد وسبحان، والتوحيد للملك الديان. ونحن فى النهار أبطال الميدان وفى الليل رهبان، ولكن ما فينا قس ولا مطران ولازور ولا بهتان، ولا نسجد لصورة فى الحيطان، ولا ننسب نبينا (ونقول) إنه ولد الرحمن»[1].

ولعل هذا يذكرنا بعتاب والدة موصور لابنها حينما أعلن نصرانيته من أجل الفتاة التى اختطفها وأحبها، ورحل من أجلها إلى بلاد الروم لكى يتزوج بها. لقد أخذت تذكره بمزايا الدين الإسلامى وقالت له: «أسمعت

(١) السيرة جـ ٥٧ ص ٣٨، ٣٩.

يا ولدى فى رومانيا بمثل المعجزات التى حدثت عند قبر الرسول؟ أتذكر حينما ذهبت معى للصلاة ذات مرة عند قبر النبى، فإذا بالضياء يشع من علٍ وسط الظلام؟ أرأيت هناك ما سمعنا عنه من أن مختلف الحيوان من أسود وذئاب وخراف ترعى بعضها بجانب بعض حول الرسول حينما كان يؤدى صلاته دون أن يحاول أحدها إيذاء الآخر، حتى إذا انتهى النبى من صلاته انحنت له خشوعا؟ أرأيت معجزات أكبر من ذلك لدى الروم؟»[1].

ثم تذكر الأم ابنها موصورا بايمان أبيه وتمسكه بدينه، وغيرته عليه فتقول له: «كيف نسيت يا بنى العزيز أمك، ،وتنكرت لأهلك ودينك وبلدك حتى أصبحت سيرتك تلوكها الألسن فى سوريا؟ أنسيت ما فعله أبوك، كم قتل من جنود الرومان، وكم حاز عنده من عبيد، وكم سبى من أميرات حسناوات، وملأ السجون من الأبطال؟ ولكنه لم يصنع كما صنعت، وحينما أحاط به جيش الرومان أقسم له القواد بأغلظ الايمان أن الامبراطور سيجعل منه بطريقا وفارسا عظيما إذا هو ألقى سلاحه. ولكنه أبى وصمم أن يكون النبى رائده، واحتقر كل مجد ولم يأبه بالثروة. عندئذ قطعوه إربا أربا ثم أخذوا سيفه»[2].

فرد موصور على أمه وقد احتدت عصبيته للدين المسيحى وقال: «لقد كنت يا أمى أصدق هذه الحكايات قبل أن أهتدى إلى الدين الحق، أما الآن فهى ليست سوى خرافات تعرض كل من يؤمن بها للعقاب الأبدى، أما من يؤمن بالله الأب الذى خلق السماوات والأرض، وبالسيد المسيح ابن

(١) الأبيات من ٧٢٠ إلى ٧٣٢.
(٢) الأبيات من ٣٩٧ إلى ٤٠٩.

الله وكلمته، الذى هبط إلى الأرض من أجل الإنسان، وصلب من أجل خلاصنا، ثم دفن فى قبره تقدسينه أنت أيضا، فإنه ينال الجزاء الأسمى. وأما من ينكر ذلك فمصيره جهنم يعذب فيها»[1]

وما زال موصور يغرى أمه بتلك الأقاويل، حتى قررت أن ترحل معه إلى بلاد الروم وتعلن ولاءها للدين المسيحى

أما موقف والد موصور الباسل، فتمثله ابنة حجاف فى سيرة الأميرة ذات الهمة؛ فقد أسرت ابنة حجاف لدى الروم، وظلوا يعذبونها بشتى صنوف العذاب حتى تترك دينها، ولكنها أبت فى إصرار وها هى ذى تشتكى ما كانت تقاسيه من عذاب وتقول:

أين السرور وأين عيشى الصافى ... أو من يخلص ابنة الحجاف
فى الجانب الأقصى تقاد بشعرها ... عريانة تمشى كمشى الحاف
ماط الخمار وقد تجمع حولها ... من كل ذى كفر بقلب جافى
قد أوعدونى أنهم فى عيدهم ... يسعون فى قتلى وفى اتلافى
وينصرونى أو اقطع عامدا ... بسيوفهم قطعا بغير خلاف[2]

وها هو ذا عبد الوهاب يعاتب ابنه بحرون الذى رفض بادىء الأمر أن يترك أمه الرومية التى ارتدت عن الإسلام ويقول له:

«ولكن الله تعالى لطف بى ورأيت رسول الله ﷺ وقد أبرانى وأخبرنى

---

(١) الملحمة ٧٣٢ إلى ٧٣٤.
(٢) السيرة: جـ٤٤ ص ٢٧.

بتنصر أمك، وأنها صارت بملك الروم مفتونة. فأين نخوتك العربية وغيرتك السلطانية القوية. وأنا أرجو من الله تعالى يا بنى ألا تلقاه وأنت كافر، فتكون فى الآخرة خاسر»[1].

هذا الجدل الشعبى حول أمور الدين الإسلامى والمسيحى يذكرنا بجدل من نوع آخر نبع من طبقة المثقفين فى العصور المتأخرة، حينما بلغ الاحتكاك الحربى بين العرب والروم أقصاه، ومن ذلك ما كتبه الجاحظ تحت عنوان «الرد على النصارى»[2].

وقد حاول الجاحظ فى هذه الرسالة أن يرد عليهم كل مزاعمهم بخاصة تلك التى يستندون فيها على آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله﴾. وقد رد رهبان الروم على تلك الآية بقولهم: «انهم لم يدينوا قط بأن مريم اله فى سرهم، ولا أدعوا ذلك قط فى علانيتهم». وهنا ينبرى لهم الجاحظ ويقول: «ولو ذهبت بكل جهدك وجمعت بكل عقلك أن تفهم قولهم فى المسيح لقال أحدهم قولا. ثم إن خلوت بأخيه وأمه وأبيه وهو نسطورى مثله فسألته عن قولهم فى المسيح، لأتاك بخلاف قول أخيه وضده وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية. ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الأديان»[3].

وقد أورد تاج الدين السبكى فى كتابه «طبقات الشافعية» قصيدة لنقفور

---

(١) السيرة: جـ ٥٧ ص ٣٤.
(٢) الجاحظ: رساله: ص ١٤٠ (نشرها يوشع فنكل القاهرة ١٣٤٤).
(٣) المرجع السابق. نفس الصحة.

فوكاس امبراطور الروم قيل إنه أرسلها إلى المسلمين فى القرن الرابع الهجرى فيها من السخرية بدينهم وبحروبهم الشيء الكثير. ثم أورد بعدها رد القفال الشاشى على هذه القصيدة، ثم ردا لابن حزم الظاهرى[1]. وربما استبعدنا أن يكتب نقفور ملك الروم قصيدة باللغة العربية، ولكنه ربما فعل هذا عن طريق أحد رجال الروم الذين يتقنون العربية. وليس من اختصاصنا الآن أن نحلل هذه القصائد لأن هذا يبعدنا عن موضوعنا الأصلى.

والحق أن موضوع الجدل الدينى يحق أن يفرد له بحث خاص يجمع بين أشتات ما قيل فى هذا الموضوع فهو يطلعنا ولا شك على أثر من آثار التبادل الفكرى بين العرب والروم.

وينتمى إلى الموضوع الدينى، ذلك النقد الذى كان يوجهه أبطال العرب لسكان الأديرة، كما سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع. فيحكى فى سيرة الأميرة ذات الهمة «أن الكنيسة الصغرى فيها رهبان وراهبات من كل فقير وفقيرة، وهم صعاليك لا يقدرون على شيء ولا يزورهم إلا الصعاليك والفقراء. أما الكنسية الكبرى فرهبانها يرفلون فى النعيم والأكل والشرب، ويحمل إليهم سائر الأشياء من الملك وغيره من أرباب النعيم، وعندهم راهبات بوجوه كأنها الأقمار ومن بنات الملوك والبطارقة الكبار»[2].

ولا يحق أن ندعى أن موقف المسلمين من الأديرة على هذا النحو، كان من قبيل التعصب الدينى. ففى كتاب «بيزانطيوم» للكاتبين الكبيرين «بينز» و«موس» فصل كامل عن نظام الرهبنة فى الأديرة وفيه يتعرض كاتب المقال

(١) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٧٦.
(٢) السيرة جـ ٥٢ ص ٢٠.

لأهم عيوب هذا النظام. ومن هذ، العيوب أن «الأديرة كانت ملجأ للذين اضطربت حياتهم، ووقعوا فريسة لحوادث الدهر. كما أنها كانت ملجأ لبعض أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين دأبوا على أن يختموا حياتهم فى الدير»[1]. ونحن نتوقع بناء على ذلك أن بعض الأديرة كانت فقيرة، فى حين أن بعضها الآخر كان يرفل فى النعيم.

ومما يذكره كاتب المقال فى هذا المجال كذلك قوله: «أننا قد نكون مبالغين فى ثقتنا فى الطبيعة الإنسانية إذا تصورنا أن الأديرة قد ناضلت عبر الزمان دون أن تتعرض لنواحى الضعف والانحلال.

فلقد جذبت ساحة الأديرة الجهلة وقساة القلوب الذين كان الدافع الدينى عندهم أضعف بكثير من الدوافع المادية الأخرى»[1].

ومما يدل على أن نقد نظام الرهبنة فى الأدب الشعبى العربى لم يكن من قبيل التعصب الدينى وحده، أن البطل العربى كان ينفعل حقا برؤية الدير ورؤية المصليين به وقد قطعوا الليل فى العبادة وها هو ذا جحاف يناجى أهل دير أبصره من بعيد ويقول:

أيا راهبا فى الدير قد زاد بلبالى
بمصباح ضوء لاح فى ديرك العالى
أيا راهبا فى البدير زدت تفلقى
وفاضت دموع العين منى بإهمالى

(١) Baynes and Moss: Byzantium, p. 145, 155, (Oxford 1953).
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

أيا را راهبا فـى الـدير أسـألك بالـذى
تنحنح فى الأحشاء وانطـق فـى الحـال
بحرقة حنـا والمسيـح ابـن مـريم
ومن ساح سوحا بين كهـف وأجبـالى
برهبـان ديـر الانقـطـاع وقسهـم
إذا بات طول الليـل لانجليـه تالـى[1]

فإذا انتقلنا إلى موضوع آخر من موضوعات المقارنة نجده متمثلا فى موضوع المرأة المحاربة ولا يتمثل وجه الشبه فى أن كلا من الأدبين يصور المرأة المحاربة فحسب، وإنما تمتد وجوه التشابه إلى ملامح شخصية المرأة بصفة عامة. وفى هذا المجال نقارن بطبيعة الحال بين ذات الهمة ومكسيمو ثم بين ابريزة ومكسيمو.

فذات الهمة لم ترغب فى معاشرة الأزواج. ولم يكن يرجع ذلك إلى عيب شكلى أو خلقى فيها، وإنما هى الرغبة فى التفرغ للقتال من أجل المبدأ. نقول السيرة: «كانت الأميرة من الجمال بموضوع عظيم، وكلما زادت صلاتها، زاد جمالها، وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ: من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار. وكانت تامة الطول، جافية الخلقة، فما أن تلبس الثياب، حتى تزداد محاسنها وجمالها»[2].

وبالمثل كانت مكسيمو جافية الخلقة فى الظاهر، ولكنها حينما خلعت

(١) السيرة: جـ ٥٧ ص ٥٣(كذا).
(٢) السيرة جـ ٤٥ ص ٤٤.

عنها النقاب كانت رائعة الجمال. كما أنها لم ترغب فى الزواج من أى رجل، لأنها كانت أقوى من أى رجل اختبرت قوته، إلا ديجنيس، فقد بارزها وغلبها. ولذلك فقد وقعت أسيرة حبه. واعترفت له بأنها لم يسبق لها الزواج، ولذلك فهى ترحب فى أن تكون زوجة له.

وفى هذا تقترب شخصية مكسيمو من شخصية ابريزة، فبينما نجد أن ذات الهمة لم تستجب لرجل قط، وإنما ظلت متمسكة بأسلوبها فى الحياة وبمبدئها إلى أن أدت رسالتها وماتت، نجد أن مكسيمو وابريزة استجابتا على التو للبطل الذى استطاع أن يهزمها. وقد رضخ شراكان لجمال المرأة الفارسة، وكاد ديجنيس أن يفعل هذا، لولا أنه أسرع فى الهروب قبل أن يسيطر عليه إغراء المرأة كلية، فيخون زوجته معها. أما شراكان فقد لبى بطبيعة الحال دعوة الإغراء لأنه لم يكن قد تزوج بعد.

ويجرنا موضوع المرأة المحاربة إلى موضوع المرأة الضعيفة التى غلبت على أمرها فسبيت وأسرت، وهو موضوع طريف يتخذه كل من الجانبين ـ شأنه شأن الموضوع الدينى ـ مجالا للتعبير عن الموقف العدائى المتبادل بين الطرفين. وقد سبق أن قدمنا لذلك أمثلة كثيرة فى الحكايات الشعبية العربية. فقد سبيت نورى ابنة ملك الروم وتنازع كل من عبد الوهاب والبطال، بل والخليفة هارون الرشيد حبها. ثم تزوجها البطال فى النهاية. وبالمثل تزوج عبد الوهاب ميمونة الرومية التى كانت قد وقعت فى الأسر وبالمثل تشير حادثة ابريزة مع الملك عمر النعمان إلى هذا الموضوع.

فإذا حكى الأدب الشعبى العربى عن سبى الروم لنساء العرب. فإنها لا تعرضهن لمثل هذا الخزى الذى يتعرض له نساء الروم. وإنما تسهب فى

وصف تجلدهن وإيمانهن القوى حتى يتخلصن من الأسر. ومثال ذلك ابنة الحجاف وكذلك تلك المرأة التى سبيت ونادت «وامعتصماه»، فأسرع إليها المعتصم وخلصها من الأسر.

وطبيعى أن تصور الحكايات والأغنيات الشعبية البيزنطية عكس ذلك. فعلى الرغم من أن موصور قد خطف ابنه الدوكاس، إلا أنه عاد وتزوجها زواجا كريما. بل إنه ترك دينه ووطنه من أجلها. وأما الفتاة التى قابلها ديجنيس وهى تبكى وتنعى حظها، فمن الواضح أنها فتاة عربية. فالملحمة تحكى أن أباها كان أميرا فى ميافاراقين، وهو اللقب الذى تستخدمه الملحمة حينما تشير إلى عربى من أسرة نبيلة. وقد امتهنت كرامة الفتاة على يد ذلك الرومى، بل وعلى يد ديجنيس وإن كان الأخير قد أرجع إليها الرجل الرومى ـ على سبيل التكفير عن ذنبه ـ وأرغمه على الزواج منها.

وبالمثل تغنت أغنية خرزانيس بحب البطل للفتاة التى يبدو أنها عربية ثم عاد وخدعها وتنكر لها ثم تركها وشأنها.

أما الموضوعات الفولكلورية المشتركة بين الأدبين فتتمثل فى الاعتقاد بأن الحلم ينبىء بحادثة تتحقق مستقبلا، ثم الاعتقاد فى السحر. وقد سبق أن تحدثنا عن هذين الموضوعين بإسهاب فى سيرة الأميرة ذات الهمة.

أما فى الأدب الشعبى البيزنطى، فالحلم يلعب بالمثل دورا كبيرا فى حوادثها. فقد أطلعت فتاة خرزانيس على ما حدث لها عندما أعطاها خرزانيس البنج ودخل بها. وتلعب الرموز بطبيعة الحال دورا كبيرا فى مطابقة الحلم للواقع، فقد رأت الفتاة أنها وسط الحشائش تحمل ورودا حمراء وإذا بسيف يهوى من السماء ويستقر بجانبها. وفسرت لها الرؤيا بأن

الزهور الحمراء ترمز لبكارتها، كما يرمز السيف إلى الرجل وهو خرزانيس، وبناء على ذلك أدركت الفتاة الخدعة التى تمت بها.

وبالمثل فقد رأى قسطنطين أصغر أخوة الفتاة التى اختطفها موصور رؤيا قبل حادث اختطاف أخته. فلما استيقظ حكى الرؤيا على أخوته وقال: «رأيت أننى جالس على سطح منزل أرقب النسور والبيادر. وإذا بنسر مهول يهبط ويخطف عصفورا رقيقا. فلما حاولت أن أنقذ العصفور أجهدت نفسى واستيقظت»[1].

وقد تتشابه الأحلام فى الأدبين إلى حد كبير. فهذه الرؤيا الأخيرة رأتها ذات الهمة قبل حادثة محاولة عاصف، قاطع الطريق، قتل ابنها. «فإنها رأت فى المنام أن عقابا قد انقض على ولدها، وانقلب فصار أفعى سوداء وقد لسعت الأميرة وماتت»[2].

أما فيما يختص بالايمان والسحر، فهو يتضح فى ملحمة ديجنيس وضوحه فى سيرة الأميرة ذات الهمة. ففى سيرة الأميرة ذات الهمة، انقلبت الغزالة إلى شكل إنسى وأخذت تحادث الصحصاح. وبالمثل فقد ظهر لامرأة ديجنيس ثعبان مهول سرعان ما انقلب شابا أخذ يراودها عن نفسها. وقد أخذ ديجنيس يحاور الثعبان الذى كان يبدو شابا تارة وثعبانا تارة أخرى، حتى فتك به.

والبطل تتملكه قوة سحرية تجعله يفتك بالأبطال فى سرعة مذهلة. وقد

---

(١) انظر ص من الكتاب.
(٢) السيرة جـ ٦٠ ص ٨.

أدرك هذا فيليبابوس وأنصاره حينما فتك بهم ديجنيس وهو مترجل وخلو من السلاح. ولذلك فقد قال فيليبابوس: «إنه لشيء عجيب حقا، أن يهزمنا رجل مترجل منزوع السلاح. نحن الذين نحمل صنوف الأسلحة وطالما استولينا على المدن وقطعنا الطرق على السائرين فيها. لقد ملأنا خوفا، وجعلنا نشعر بالجبن والخزى. لابد أنه ساحر وربما كان شيطان هذا المكان»[1].

وقد سبق أن أشرنا إلى تعليق مافروجارداتو على هذا الحادث بقوله: إن هذا التصور لم يكن سوى صدى للايمان الشعبى بقوة السحر، وقد أيدنا هذا بالرواية الشعبية التى ذكرها بيورى والتى تحكى عن استعانة الامبراطور تيوفيل بالسحر للقضاء على المشاغبين الثلاثة»[2].

وأخيرا نود أن نشير بصدد مقارنة الموضوعات الفولكلورية إلى ما ترسب عن عقول كل من الشعبين من روايات شعبية على نطاق واسع، وتركت أثرها فى أدبهما الشعبى. ونعنى بذلك تلك الروايات الشعبية التى شاعت حول الاسكندر الأكبر.

وفى ملحمة ديجنيس إشارتان إلى الاسكندر الأكبر. الأول ذكرت بمناسبة ظهور مكسيمو فى ميدان القتال لتصرع ديجنيس. فقد ذكرت الملحمة فى نصها الشعرى أنها من نساء الأمازون الذين أحضرهن الاسكندر الأكبر معه من الهند.

---

(١) الملحمة: انظر الأبيات من ٢٧٧٥ إلى ٢٧٨١.
(٢) انظر ملخص الملحمة.

وأما الإشارة الثانية فهى تعليق ناشر الملحمة على النص الذى يشير إلى أن ديجنيس مرض إثر استحمامه ذات مرة ثم مات بعد ذلك[1]. فهو يقول إن حكاية الاسكندر الأكبر الشعبية تحكى أنه مات بمثل هذه الطريقة.

وفى سيرة الأميرة ذات الهمة يقول البطال للخليفة: «يامولاى رأيت فى سيرة الاسكندر أنه نزل على بعض القلاع، وكانت القلعة كثيرة الحرس، ليس لأحد عليها طريق، فأحضر الاسكندر بطارقته وقال لهم: شيروا على بما أصنع فى فتح هذه القلعة، فقال الحكيم بلياس: يا ملك الدنيا جهز الساعة كل ما تقدر عليه من الجوز حتى أبين لك. فنادى الاسكندر كل من كان عنده جوز قليل أو كثير يأتى به إلى الملك. فلم تكن ساعة حتى أقبل الجوز مخابى وأعوال، وبه يا أمير المؤمنين قدر على فتح تلك القلعة»[2].

* * *

وبعد.. فهذه هى وجوه المقارنة بين الأدب الشعبى البيزنطى والعربى كما تمثلناها. وإذا كان لنا أن نقارن من حيث الشكل بين ملحمة ديجنيس من ناحية وحكاية عمر النعمان وسيرة الأميرة ذات الهمة من ناحية أخرى، فإننا نجد هذه النماذج تخضع جميعها لشكل الأدب البطولى بصفة عامة. فالأدب الشعبى البطولى سواء كان ملحمة أم سيرة أم حكاية شعبية بطولية، يمهد لظهور البطل، ثم يحكى عن ميلاده وبلوغه ووفاته. ويرى لورد راجلان أن الأدب البطولى على هذا النحو يعد امتدادا للطقوس التى كانت

(١) الملحمة: ص ٢٣٣ بالهامش.
(٢) السيرة جـ ٢٣ ص ٦٢.

تحتفل بالبطل الاله ثم بالبطل المؤله ثم بالبطل الإنسان. وحيث أن الطقوس كانت تحتفل بالميلاد وسن البلوغ والوفاة، فإن الحكاية الشعبية البطولية تلتزم هذا. وكما أن الطقوس تهمل فترة ما بين الميلاد والبلوغ، لأنها فترة تخلو من الحوادث المهمة، فكذلك تهمل الحكاية الشعبية البطولية هذه الفترة، وتقفز من الميلاد إلى البلوغ[1].

أما من حيث تناول الموضوع بصفة عامة فهنا تظهر وجوه الاختلاف التي ينبغي أن تكون قائمة بين الأعمال المختلفة، رغم تشابهها في الأفكار وفي صور البطل وفي الموضوعات العامة. وهذا يرجع إلى مقدار ما يعترى الشكل الأدبي الشعبي من صقل قبل أن يصل إلى مرحلة التدوين.

على أننا نرى أن حكاية عمر النعمان، رغم ذلك تتشابه مع ملحمة ديجنيس إلى حد كبير من حيث تناولهما للموضوع. فكلاهما يتخذ من نهر الفرات رمزا للسلام والهدوء والجمال. وكل من بطليهما يحس الجمال بجانب هذا النهر، جمال الإيمان وجمال الأمل وجمال الطبيعة وجمال الحب، وكل منهما ينحو منحنى رمزيا، فهما يرتكزان على التاريخ وحوادثه، ولكنهما يتركانه بعد ذلك، إلى حيث يقف البطل مدافعا عن أمله الذي يراوده عن الحق والجمال والسلام.

* * *

(١) Lord Raglan: The Hero, p. 193. (London 1949).

الخاتمة

ولعلنا بعد هذه الجولة التى عشناها مع الأدب الشعبى العربى، والأدب البيزنطى، استطعنا أن نبين العلاقة القوية بين الأدبين.

والحق أن هدفنا من البحث ليس الكشف عن العلاقة القوية بين الأدبين، بقدر ما هو الكشف عن العلاقة بين الشعبين العربى والرومى، والكشف عن صراعهما النفسى وآمالهما فى تلك الفترة المتوترة الطويلة التى عاشها الشعبان معا.

إن العلاقة بين شعبين وإن اتخذت شكلا عدائيا ـ لا يمكن أن تفهم من وجهة نظر التاريخ وحده. وإن التاريخ لا يهتم إلا بالعلاقات الرسمية ـ سلمية كانت أم حربية ـ التى تتم بين الحاكمين. ولكن حيث أن المحاربين أنفسهم كانوا يمثلون طوائف شعبية، جمع بين بعضهم البعض هدف واحد وروح جمعى واحد، فلا يمكن إذن إن نغفل إحساسات تلك الطائفة الشعبية التى عاشت ظروف هذه الفترة فى أعماقها، وكان احتكاكها بالشعب المعادى لها أقوى وأعمق بكثير من علاقة الحكام بعضهم ببعض.

ولهذا فنحن نرى أن دراسة التاريخ بعيدا عن الآثار الأدبية التى تصور فى عمق شتى جوانب الحياة فى ظروف تاريخية محددة، دراسة ناقصة ولا شك. فليست العبرة أن نحفظ تواريخ وحوادث فحسب، وإنما يتحتم علينا

أن تكون نظرتنا شاملة وعامة، فنبدأ بالتاريخ، ثم نتعداه إلى دراسة النماذج الأدبية بوصفها مصورة لأفكار سياسية واجتماعية وإنسانية تفجرت عن حوادث معينة عاشها الشعب في حقبة من تاريخه.

وبهذا تتكامل دراستنا التاريخية، ونستطيع بذلك أن نقول إن العلوم الإنسانية ليست بمعزل عن بعضها البعض، وإنما يكمل بعضها الآخر من أجل هدف واحد هو فهم الإنسان في فترة من فترات حياته.

وإذا كان الحاضر يقدم لنا دائما الشيء الجديد والشيء اليومي، فإن الماضي قد قدم لنا تراثا خالدا من النماذج والأفكار الإنسانية الرائعة. ولا يتمثل هذا في الأدب الذاتي وحده، وإنما يتمثل ، إلى جانب ذلك، في ثروة التراث الشعبي الهائلة التي خلفتها لنا الشعوب. فالالياذة والأوديسا، وملحمة النيبلنجنليد وملحمة بيولف، والملحمة الايسلندية، تقف كلها جنبا إلى جنب مع الفردوس المفقود والكوميديا الآلهية. وبالمثل فإن ألف ليلة وليلة والسير الشعبية العربية تقف مع أروع الأعمال الأدبية العربية القديمة جنبا إلى جنب، وإن كان كل نوع له وظيفته المحددة في الحياة الإنسانية.

وليس الأدب الشعبي مجرد أقوال ينطلق بها الشعب ليسلي بها نفسه في أوقات فراغه، وإنما يؤدي الأدب الشعبي وظيفة محددة في حياة الشعب، فهو جزء عضوي حي في حياته لا يمكنه أن يعيش دونه.

ويمكننا أن نتصور الشعب العربي الذي كان مقيما في منطقة الحدود العربية ذات يوم، أو ذلك الذي كان يكافح في ظروف تاريخية أخرى مماثلة، وهو يجتمع مع بعضه البعض كلما واتته الفرصة، ليستمع إلى حكايات البطولة التي تجسد له نماذج أبطاله بقيمهم الإنسانية الرائعة، وتجسد له في

الوقت نفسه نموذج الشر الذى يفسد عليه حياته، ألا يجد فى ذلك زادا يستحيل فى جسمه إلى دماء تغلى من أجل تحقيق الخير؟ بل ألا يزداد مقتا لقيم الحياة الفاسدة، فيعلن الحرب عليها حتى يزيلها من حياته؟

إن الإنسان الشعبى متفائل بطبعه، ولذلك فهو متعلق بالحياة، ويسعى إلى تحقيق الأسمى إذا واتته الفرصة، ووجد البطل الذى يلتف من حوله. وليس ذلك سوى استجابة للقوى الخيرة التى تسكن بداخله والتى سماها يونج بالنموذج الأصلى. هذه القوى الخيرة التى تكمن فى الإنسان بصفة عامة وفى الفرد الشعبى بصفة خاصة، هى التى تجعله يحب بطله ويود الاستمتاع إلى حكايته لأنها تلبى احتياجاته النفسية التى لا تتحقق له إلا بهذه الوسيلة.

وقد استجاب الشعب للنموذج الأصلى حينما خلق من خلال فنه نموذجا للبطل الشعبى الذى تجسدت فيه آماله، والقيم الإنسانية الصالحة التى يسعى إليها.

وقد وجدنا أن كلا من الأدبين العربى والبيزنطى لم يهدف إلى تصور العداء المتبادل بين العرب والروم، بقدر ما حرص على محاربة الشر الذى يتهدد الإنسان ويتهدد مصيره. وقد نجم عن ذلك نموذجا رائعا للبطولة، سهر بعين اليقظة ليقضى على الفساد ويحقق القيم الكاملة.

فما أروع الآداب القديمة التى تدفع الأمل إلى الشعب. وما أجدرنا أن نذيعها بيننا اليوم، كما كانت تذاع ذات يوم، حتى يظل متعلقا بنماذج أبطاله ويحذو حذوهم اليوم.

* * *

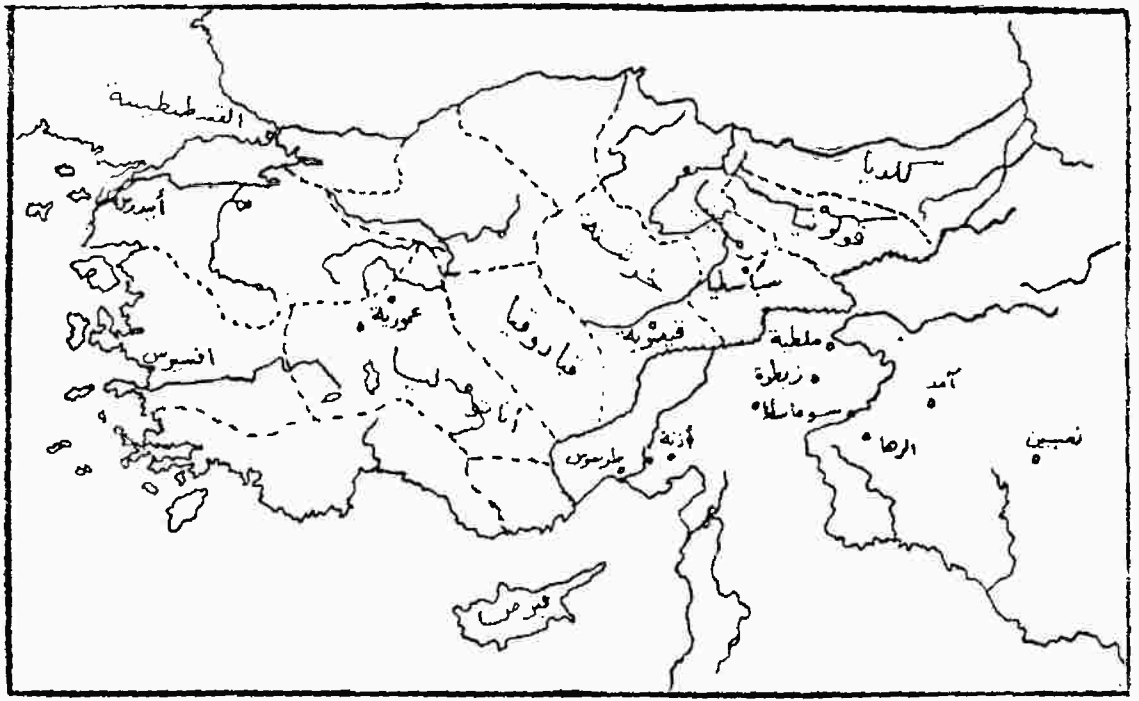

أسماء الأجناد والبلاد التى ورد ذكرها فى الأدب

الشعبى العربى والبيزنطى

المصادر والمراجع

المراجع العربية

١- ألف ليلة وليلة ـ مكتبة الجمهورية العربية.

٢- ابن حوقل: صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨).

٣- ابن حوقل: المسالك والممالك (ليدن ١٩٣٨).

٤- ابن النديم: الفهرست (ط. الرحمانية بمصر ١٣٤٨).

٥- ابن الأثير: تاريخه ط ليدن.

٦-أسامة بن منقذ: الاعتبار برنستون ١٩٣٠.

٧- الأغانى للأصفهانى. ط القاهرة ١٢٨٥ هـ.

٨- سيرة الأميرة ذات الهمة ط عبد الحميد حنفى.

٩- د. حسين مؤنس: الامبراطورية البيزنطية (ترجمة)لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠).

١٠- الجاحظ: رسائله (نشرها يوشع فنكل القاهرة ١٣٤٤ هـ).

١١- القلقشندى: صبح الأعشى: المطبعة الأميرية ١٩١٣.

١٢- ڤازيلييف: العرب والروم (ترجمة فؤاد حسنين وعبد الهادى شعيره.

دار الفكر العربى).

١١ – المسعودى: التنبيه والأشراف طـ. دى جريه.

– المسعودى: مروج الذهب.

– النويرى: نهاية الأرب (ط وزارة الثقافة والارشاد القومى ١٩٦٦).

– د. نبيلة ابراهيم: أشكال التعبير فى الأدب الشعبى. (مطبعة نهضة مصر ١٩٦٦).

١–هانزفير: الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة. (فيزبادن ١٩٥٦).

١ – د. سهير القلماوى: ألف ليلة وليلة. طـ. دار المعارف.

* * *

المصادر والمراجع

المراجع الأجنبية

1. Adonz: Les Fonds Historique de l'Epopée Byzantine "Digenis Akritas. (Byzantinische Zeitschrift 1929-30).

2. Baynes and Moss: Byzantium. (Oxford 1953).

3. Bowra (C. M.): Heroic Poetry, (Macmillan London 1952).

4. Buchhardt (G.): Gilgamesch; (Insel Bücherei n. 203).

5. Bury: History of the Roman Empire. (London 1912).

6. Canard (M): Un Personage de Roman Arabe Byzantine (Société Historique Algérienne 1932).

7. Canard (M): Delhemma, Sayyid el Battâl et Omar an-Nôman, (Extrait du Byzantion 1937).

8. Chadwick (M.): The Heroic Poetry; (Macmillan London 1921).

9. Cheira (M. A.): La Lutte entre arabe et byzantine aux VII et

VIII siécles (Société de Publication).

10. Ethé (H.): Die Fahrten des Sayyid el Battâl. (Leipzig 1871).

11. Frazer (J. G.) The Golden Bough (London 1890).

12. Grimm (B.): Kinder und Haus märchen (Marburg 1941).

13. Gregoire: Nouvelles chanson epignes des IX et X siécles, (Byzantion XIV).

14. Grégoire:L'âge Héroique de Byzance: (Paris 1933).

15. Grégoire: Les recherches récents sur l'épopée byzantine (Antique Classique 1932).

16. Grégoire: Autour de Digenis Akritas (Byzantion 1932 VII).

17. Grégoire: Le Tombeau de Digenis Akritas (Byzantion 1931).

18. Grégoire: Echanges Epique Arabo-Byzantine 1932.

19. Grégoire et Gossens: Les Recherches récents sur l'épopée byzantine (L'antiquité classique 1932).

20. Grégoiré et Gossens: Byzantinsche Epos und arabischer

Ritter roman (I. D. M. G. 1934).

21. Haslick (F. W.): Christianity and Islam under the Sultans (Oxford 1929).

22. Jolles (A.): Einfacke Formen (Tübingen 1958).

23. Krejce (F.) Das Charakteristische Merkmal der Volks poesié.

24. Kyriakidis (St.) Forschungsbricht sum Akritasepos, Berichte sum XI internationalen Byzantin.

25. Krumbacher: Geschichte der byzantinischen Literatur. (Munchen 1891).

26. Luthi (M.) Das Europäische Volks märchen (Franche - Bern 1947).

27. Littmann (E.): Arabische Beduinenerzahlungen (Müller Verlag 1957).

28. Litmann (E.): Arabische Märchen (Insel Verlag 1927).

29. Litmann (E.): Tausand und eine Nacht in der arabischen Literature (Tübingen 1923).

30. Mavrogardato (J.): Digenis Akritas. (Clarendon Press Oxford 1956).

31. Paret (R.) Der Ritter Roman von Omar an-Nôman und

seine Stellung zur Sammlung von Tausand und eine Nacht (Tübingen 1929).

32. Paret (R.): Die Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur (Philosophie und Geschichte B. 13.1927).

33. Paret (R.): Sirat Saif ibn Dhi Jazan (Orient Buchhandlung 1924).

34. Raglan (L.) The Hero (London 1949).

35. Ranke Betrachtung zum Wesen und zur Funktion des Märchen. (Gottingen 1958).

36. Runciman (S.): The medieval Manichee (Cambridge 1955).

37. Singer: Arabische und Europaische Poesie im Mittelalter (Insel Verlag 1918).

38. Sathas et Legrand: Les Exploits de Digenis Akritas. (Paris 1875).

39. Täschner (R.): Des Futuwwa Rittertum des islamischen Mittelaters.

40. The Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend.

41. Von der Leyen (F.): Das Märchen, quelle und Meyer, Heidelberg 1958.